رسائل المجلس الأعلى
للطرق الصوفية
(٣)

الإمامُ القُشَيْرِى

حياته وتصوفه وثقافته

د . إبراهيم بسيونى
أستاذ الفكر الإسلامى بجامعة عين شمس

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا القاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد: فهذا هو الكتاب الثالث فى سلسلة الكتب الثقافية التى تصدر عن المجلس الأعلى للطرق الصوفية ، وموضوعه « الإمام القشيرى : حياته وتصوفه وثقافته » .

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيونى ، الأستاذ بجامعة عين شمس ، وهو زميل متخصص فى دراسات التصوف الإسلامى بوجه عام ، وفى تصوف القشيرى بوجه خاص ، وقد أنفق سنوات من عمره حتى حصل على الدكتوراه ببحث عن هذا الصوفى الجليل . ونشر عددا من مؤلفاته العلمية نشرا محققا ، وقد تقبلها الدارسون بقبول حسن لأنها تسد فراغا فى مكتبة التصوف ، ولأنها تقدم صورة رائعة لتصوف إمام من أئمة التصوف السنى كان له فى تاريخه شأن كبير .

وأذكر من مصنفات القشيرى التى حققها الدكتور إبراهيم بسيونى كتاب « لطائف الإشارات » فى تفسير القرآن الكريم « والتحبير فى التذكير » ، و« ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى » .

وقد تضمن هذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء حياة الإمام القشيرى بالتفصيل ، والبيئة التى نشأ فيها ، وكيف استفاد من أستاذه الصوفى الشهير أبى على الدقاق ، وكيف كانت صلته بإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، وكيف ناصرا معاً مذهب أهل السنة والجماعة الكلامى ، والمحنة التى مر بها القشيرى فى حياته .

كذلك بين لنا المؤلف اهتمامات القشيرى بعلوم الشريعة ، كعلوم الكلام والتفسير والحديث والفقه ، ثم عرض بعد ذلك لتصوفه ، ومذهبه فى التخلق ، وضرورة التأدب بشيخ وقضية لبس الصوف ، والتخلق بأخلاق الفتيان ، والعزلة ، والسماع ، ومقامات الطريق إلى الله تعالى. وعرض لمذهب القشيرى فى الذوق والحب والفناء ، والتحقق والعلاقة بين الشريعة والحقيقة ، والمشاهدة والعرفان ، وأوصاف العارفين ، والولاية، والذكر وأقسامه .

ويختم الباحث كتابه بكلام عن القشيرى والشعر الصوفى ، فينقلنا بذلك إلى روضة من رياض الصوفية ، حيث تجد النفس متعتها الروحية.

ونحن قد سعدنا بهذا الكتاب ، ويقيننا أن القارىء الكريم سيجد فيه مثلاً من أمثلة شخصيات التصوف المحببة إلى النفس ، وسيجد فيه نهوضا بروحه فى مدارج الطريق إلى الله ، فقد كان القشيرى شيخا مربيا للنفوس ، مرشدا لها إلى طريق الخير .

نسأل الله تعالى لمؤلف هذا الكتاب كل توفيق وسداد ، وأن يجزيه عنا خير الجزاء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تحريرا فى : أول ربيع الأول ١٤١٣ هـ

٣٠ أغسطس ١٩٩٢

دكتور

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الإمام أبو القاسم زين الإسلام عبد الكريم القشيرى شخصية مرموقة فى تاريخ الفكر الإسلامى بعامة وفى التصوف بخاصة .

ونستطيع القول - بلا مبالغة - إن أى بحث فى خدمة التصوف الإسلامى ، أى الذى يتفق وأصول الإسلام ، لا يستطيع أن ينهض دون أن يرجع الباحث إلى القشيرى .

وينطبق هذا أيضاً على الباحثين فى الغرب .. فيهمهم دائماً أن يعرجوا على الإمام القشيرى على أساس أن رؤيته الخاصة تمثل رأى الاعتدال فى هذا المجال .

وقد شرّفنى وأسعدنى أن أتصل به فى مجال حياتى العلمية والتعليمية طوال أكثر من نصف قرن . وكان ذلك منذ بدأت أعد بحث الماجستير عن الشعر الصوفى فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ثم كان بحث الدكتوراه عن هذا الإمام الجليل .

وامتد التواصل خلال نشرى لكتبه العظيمة بعد عثورى على

معظمها خلال رحلات طويلة فى أصقاع الأرض البعيدة والقريبة .

وبعد أن ظل الناس مئات السنين لا يعرفون الرجل إلا من خلال كتاب واحد تقريباً هو « الرسالة القشيرية » أصبحوا يعرفونه الآن من خلال مصنفات جمّة ، وقفنا لها العمر والبصر والعافية ، وأعطيناها كل الجهد والهمة حتى تصل إلى أيدى الناس ميسورة ومشروحة وذات تعليقات وهوامش وتخريجات تمنحها - وقد منحتها فعلاً - اقتراباً من عقول الناس ووجداناتهم وأذواقهم ، فطبع معظمها عدة مرات ، مما يدل على أن قراء الثقافة الرفيعة فى أنحاء العالم الإسلامى ما زالوا من حيث العدد والقدر موضع الاحترام والتقدير .

وأثبت ذلك فى ذات الوقت أن « الرسالة » ظلمته حين شهرته ، وأوقفت اسمه عليها ، والآن وقد أصبح فى منطقة الضوء ، وبعد ما أقبل الباحثون الشبان على دراسته ، فإن هذا يسعدنى ويبهجنى .

وأسعد وأبتهج اليوم أكثر وأكثر ، وأنا أقدم لمشيخة الطرق الصوفية الموقرة هذا البحث العلمى فى عهد رائدها الأخ الكبير الأستاذ الجليل الدكتور أبو الوفا التفتازانى .. وفقه الله وسدّد خطاه ..

د . إبراهيم بسيونى

البيئة الصغرى للقشيرى

والآن ...

لنقترب من الرجل ، ولنتعرف إلى أهله وبيته والظروف التى أحاطت بالفترة المبكره من حياته ، فإنها بلا ريب قد تركت آثارها الواضحة فى كل حركاته وأنشطته وتصانيفه فيما بعد .

فى ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ ولد عبد الكريم فى قرية صغيرة اسمها « أُسْتُوا » على مقربة من المدينة العظيمة العتيدة - نيسابور - فى إيران الآن .

ونستعجل الأحداث ، فنقول إنه توفى فى عام ٤٦٥ هـ ، ومعنى هذا أنه عاش ما يقرب من تسعين عاماً فى أخريات القرن الرابع وشطراً كبيراً من القرن الخامس الهجريين ، وهى فترة نعلم بأنها - وإن كانت عصر اضطراب سياسى - إلا أنها كانت عصر التألق والابتكار فى العلوم الإسلامية ، عصر تقعيد العلوم ، وتأصيل المتون والشروح .

واسمه الكامل : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن

طلحة بن محمد القشيرى . وكُنيته أبو القاسم ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيرى .

وقد غلّبنا فى اسم جده ما وقع عليه إجماع ابن خلكان ، وابن العماد ، وابن عساكر ، وتاج الدين السبكى .

وللقشيرى أهمية خاصة من حيث إنه عربى النسب من ناحية أبيه ومن ناحية أمه ، ونلح فى هذه النقطة لأن أغلب علماء هذه المنطقة من أصول غير عربية مع عظم أقدارهم .. وهذه نقطة لا تهمنا كثيراً ، لأن أخوة الإسلام صهرت كل هذه الفروق وأصبح نسب الإسلام له الغلبة ، وإنما نقولها لبعض علماء المغرب الذين يحاولون - عامدين - أن يجرِّدوا العنصر العربى من كل أصالة فى شىء .

خرج بنو قشير مع الفتح الإسلامى ، فاتجهت منهم موجة نحو المغرب وموجة نحو المشرق ، واستقر بعضهم فى مصر .. وكان لهم شأن سواء فى الأندلس أو فى خراسان ونيسابور .

وتتأكد عروبته أكثر حينما نعرف أن أمَّه سُلَمية ، فهى أخت أبى عَقِيل السُّلمى من وجوه المنطقة وأعيانها .

* * *

ويتلقى الصبى علومه الأولى على يدى أبى القاسم

العليمانى ، ويتقن العلوم الإسلامية ، ويزيد على ذلك بإتقانه للحساب .

وتمر ببلاده فترة ضيق اقتصادى شديد نتيجة الانتقال من الحكم السامانى إلى الحكم الغزنوى .

ويختار القوم عبد الكريم القشيرى ضمن طائفة من شبان القرية كى يتجهوا إلى نيسابور ، لزيادة إتقانهم للمحاسبة حتى يُمكن تنظيم الأمور ، وبالتالى تخفيف الأعباء التى أثقلت كواهل الناس .

تلك كانت الرحلة الأولى فى حياته ، والتى كانت فى ذات الوقت بداية انتقال هامة .

نعم .. فما أن دخل منتدىً يُلقى فيه أبو إسحاق الإسفراييني درساً فى علم الكلام حتى شعر بأنه قد انتقل إلى وادٍ جديد من أودية المعرفة التى لم يكن له بها سابق دراية ، وينتقل من هذا المنتدى إلى منتدى آخر يُلقى فيه ابن فورك دروسه حتى يهيم حباً بمثل هذه الدروس ، وهكذا أخذ يتنقل من مجلس إلى مجلس حتى تكوّن لديه آخر الأمر إحساس جارف بأن نيسابور كلها ليست إلا مجمعاً علمياً لعلوم الأصول والفقه والحديث والكلام فضلاً عن منابر للغة والأدب ، كلها تزخر بأكابر القوم ذوى الأسماء اللامعة التى تشع من مشرق

العالم الإسلامى إلى سائر الأمصار أنواراً لا تتناهى ، وأصبح الشابُّ طالبُ مادة الحساب تلميذاً مثابراً فى علوم العقل والنقل ، بصحبة أتراب وشيوخ لهم عنده كل الحب والإجلال والاحترام ، وبخاصة حينما كان يلمح على الدوام اتصاف هؤلاء وأولئك بسمة الزهادة والورع والتقوى ، فالتفت منذ وقت مبكر إلى أن العلم الصحيح هو المصحوب بالعمل .. وأن هذا هو أصل أصيل فى التربية التى ينشدها الإسلام للناشئة .

وتكتفى بمثلين لهذا الرعيل العظيم من شيوخه ، وهو الشيخ أبو بكر محمد بن أبى بكر الطوسى « إمام أصحاب الشافعية وفقيههم ، وكان له الدرس والأصحاب ومجالس النظر » - كما يقول كتّاب التراجم ، ويضيفون أنه كان ورعاً زاهداً شديد الحب للخلوة والفكرة ، تاركاً لكل عروض الجاه التى عُرِضت عليه ، فظهرت بركته - كما يقول السبكى - على تلاميذه وأصحابه .

وفى مجلسه تعرَّف القشيرى على صديق عمره أبى عبد الرحمن السُّلمى - صاحب الطبقات الصوفية المعروف - (طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٤٩) ، وهو من ذوى قرباه من ناحية أمه .

أمّا الأستاذ الإسفراييني فهو (أحد أئمة الدين كلاماً

وأصولاً وفروعاً ، وقد بُنيت المدرسة النظامية الشهيرة لأجْله ، وكان يحضر مجالسه سبعمائة فقيه ، وصفوه بقولهم : لو رآه الشافعى لفرح به . وله كتب فى الفقه ، تناولها كثيرون كالبيهقى والقشيرى (شذرات الذهب حوادث سنة ٤٠٦) و (طبقات الشافعية جـ ٣ ص ١١٢) .

وذات يوم قال الإسفرايينى لتلميذه القشيرى : « أما عَلِمْتَ يا بنىّ أن هذا العلم لا يُحمَل بالسماع ؟! » .

وإذ بالقشيرى يعيد على الشيخ كل ما سمعه ، ويقرره أحسن تقرير من غير إخلال بشىء ، فيقول الشيخ : « ما كنت أدرى يا بنى أنك قد بلغت هذا المحل ؛ فلست تحتاج إلى درس ، ويكفيك أن تقرأ مصنفاتى ، وتنظر فى طريقتى ، فإذا أشكل عليك شىء طالعتنى » .

ويستمع القشيرى إلى نصيحة شيخه ، ويزيد بأن يطالع مصنفات الباقلانى وغيره .

● نقطة تحول جديدة بعيدة الأثر فى حياة القشيرى :

وبينما القشيرى مشغول الهمة بهذه الدراسات العقلية والنقلية ، دائب الاتصال بهذا الطراز من الشيوخ ، يسوقه القَدَرُ إلى مجلس من نوع آخر ليستمع إلى شيخ من طراز جديد :

- **مجلس أبى على الدقاق :**

يستمعُ القشيرى إلي حديث بارع ممتع فى المجاهدات والرياضات ، وفى الحقائق والأحوال ، وفى الأذواق والمواجيد ، وفى الكشف والعرفان .. وفى التجرد من العلائق والخلائق ، وفى التهيؤ لرحلة سنية غايتها الله سبحانه .. المحبوب الأسمى والأسنى ، وثمرتها معارف من طراز راقٍ يفوق علوم العقل والنقل ... فهتف فى أعماقه : « يا إلهى .. إنى لهذا خُلقْت ! » .

أسَرَ الحديثُ لُبَّه ، وفجَّر عاطفته ، وفتحَ أمام بصيرته عوالم جديدة ، ولم يعد يطيق بعداً عن هذا المجلس أو عن هذا الشيخ ، فثابر وثابر ، ودنا من الشيخ شيئاً فشيئاً حتى جرؤ ذات مرة على أن يتقدم منه وأن يشكو إليه أمراً حَزبَه ، إنه متصل بعلوم الأصول والكلام والفقه والتفسير والحديث ، ولكنه فى ذات الوقت لا يستطيع الفكاك من حضور هذا المجلس ، والاستماع إليه ، فابتسم الشيخ وربت على كتفه وقال : « عليك يا بنى ألا تقطع دراستك هنالك حتى تطمئن إلى أنك قد أتقنت محصولاً كافياً ترضى عنه » .

فانصرف يجمع بين الدراستين ، ولكن مجلس الدقاق كان

أعظم أثراً وتأثيراً ، خصوصاً بعد أن استراح إلى نقطة ، يمكن أن يستريح عندها من زاد العقل والنقل .

هذه المرحلة فى طلب العلم تركت أثرها البعيد البعيد فى حياة القشيرى كلها ، ولقد تجلّت آثار هذه الثقافات على نحو واضح بارز فى كل مؤلفاته ، كما أنها أعطت لآرائه فى التصوف قيمة علمية أكبر وأخطر .. لأنها صادرة عن رجل من أهل السُّنَّة ، يتقن علوم العقل والنقل ، ثم يختار طريق الحقيقة إلى جوار طريق الشريعة ، وأخيراً يمنح التصوف وأهله زاداً علمياً متدفقاً لا التواء فيه ، ولا جنوح عن غرض أو مرض أو ادعاء .

ثم إنها أخيراً مرحلةٌ ملأت فراغ حياته ، وهو ذلك الشاب المغترب عن أهله فى هذه المدينة الواسعة نيسابور ، فلم يعد له من وقت كى يعانى ضغوطا نفسية شأن مَنْ فى عمره آنذاك ، ولم يشعر بضيق أو ملل ، كل ذلك كان له أثره فى إنتاجه العلمى كما سنرى .

وأعجب الدقاق بتلميذه ، ولمح فيه النجابة والمثابرة والصدق والتقوى ، وأسعده أن يحاول الجمع بين علوم الشريعة وعلوم الحقيقة فى استقامة وتواضع ، فقرّبه منه ، ثم اختاره زوجاً لابنته الوحيدة فاطمة مؤثراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها : (وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٧٥) .

وهكذا توثقت الصلة بين الشاب والشيخ ، وصار الدقاق رائده وملهمه ، فهو يهرع إليه كلما ألم به أمر ، أو عرضت له مشكلة ، والشيخ يُبَصِّر المريد بآفات النفس وعلاجها ، ويكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق

ويهمنا هنا أن نتوقف قليلاً عند الشيخ الدقاق قاصدين أولاً أن نعرِّف بهذه الشخصية العظيمة التى قلَّ من الناس - حتى المتصلين بالتصوف - من يعرف عنها كثيراً ، وقاصدين ثانيا أن نوضح « الطريقة » أو السند الذى اتبعه الشيخ القشيرى منذ كان مريداً حتى نثبت أن فكرة « الطريقة » لها أصول تاريخية فى العلم الصوفى ، وقاصدين ثالثاً أن نضرب مثالاً على الاحترام والذى كان يتمتع به الشيوخ فى نظر المريدين حتى يستفيد من ذلك ناشئة التصوف وشبابهم .

لأجل هذا كله لا ضير أن نتوقف قليلاً عند سيرة الشيخ أبى على الحسن الدقاق .

إن اسم الدقاق لا يكاد يغيب عن عين القارىء لأى كتاب من كتب القشيرى ، وهو يأتى مقروناً بألقاب الاحترام والتكريم مثل (قال الأستاذ) ، (وقال الأستاذ أبو على) ، و (الشهيد) .. ويكون الرأى من قبيل حسم الموقف فى

الموضوع المطروح .. كأنه يريد أن يقول : لا مناقشة بعد قول شيخى ! ؟ .. وهذا فرع من فروع الأخلاق المألوفة فى الصوفية « فالذى يقول لِمَ ؟ لشيخه لا يفلح » فالشيخ بالنسبة للمريد كغارس الشجرة وراعيها .

يقول عنه - أى عن الدقاق - عبد الرءوف المناوى فى كتابه « الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية » : « .. هو أبو على الحسن الدقاق النيسابورى الشافعى ، كان لسان وقته وإمام عصره ، فارهاً فى العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة ، سرى الحقيقة . أخذ مذهب الشافعى عن القفّال والحصرى وغيرهما ، وبرع فى الأصول ، وفى الفقه ، وفى العربية حتى شُدَّت إليه الرحال فى ذلك ، ثم أخذ فى العمل وسلك طريق التصوف آخذاً عن النصراباذى ، وعنه أخذ صاحب « الرسالة » (يقصد القشيرى) ، وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة .

قيل له : لِمَ زهدتَ فى الدنيا ؟ قال : لمّا زهدت فى أكثرها أنفتُ الرغبة فى أقلها .

وكان كثيراً ما ينشد :

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حَسُنَتْ

ولم تَخَفْ شرَّ ما يأتى به القَدَرُ

وسالمتك الليالى فاغتررتَ بها

وعند صفو الليالى يحدث الكدَرُ

انتهى كلام المناوى عن الدقاق ، وتكاد تكون فى تفاصيلها خلاصة لسيرة القشيرى نفسه ، ونحن لا نستطيع أن نغادر هذه الجوانب فى حياة القشيرى دون أن نتحدث عن شخصية هامة لها شهرتها العظيمة ، ونقصد به إمام الحرمين أبا المعالى الجوينى . فلقد كان صديقاً للقشيرى أقرب إلى التلميذ ، وشاركه فى نصرة المذهب الأشعرى - مذهب أهل السنة فى بلاد المشرق ، واكتوى مثله بالمحنة التى أَلَمَّتْ بأهل السُّنَّة فى خراسان - والتى سنتحدث عنها بعد قليل ، وخرج معه إلى المنفى فى إثرها ، وعادا سوياً بعد انقشاعها ، ثم لم يفترقا بعد ذلك .

ومن المعروف أن الوزير الهمام العظيم نظام الملك كان من أشد المعجبين بالجوينى ، ولأجله جعل المدرسة النظامية فى نيسابور أشبه بالجامعة فى عصرنا الحاضر .

وفى رأينا أن الجوينى يمثل حلقة الاتصال بين القشيرى من ناحية وبين الإمام أبى حامد الغزالى - تلميذ الجوينى - من ناحية أخرى .

وكان الجوينى صاحب نزعة صوفية (وكان إذا تحدث فى

الأحوال وخاض فى علم التصوف أبكى الحاضرين ببكائه ، وقطر الدم من الجفون بزعقاته وقراءاته وإشاراته لاحتراقه فى نفسه ، ولتحققه بما يرى من دقائق الأسرار) طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٢٥٧ .

ويهمنا كذلك أن نشير إلى أن القشيرى عَمِلَ لكَسْب عَيْشه منذ عهد مبكر ، ولم يكن عالةً على أحد حتى إذا وصل إلى الثلاثين من عمره عُيِّن فى التدريس بمسجد المطرز يومين كل أسبوع ، كما أنه عمل بالتأليف دون انقطاع ، وله تفسير كبير اسمه « التيسير فى التفسير » أنهاه قبل ٤١٠ هـ ، وبقى يواصل التدريس والتأليف حتى لقى ربه ، وقد حصلنا على جزئه الخامس مخطوطاً فى مدينة طشقند .

* * *

المحنة الكبرى فى حياته

ذاع صيت القشيرى فى أرجاء العالم الإسلامى بعامة وفى المشرق بخاصة وفى نيسابور بصفة أخص ، فأثار ذلك حقد كثيرين من أعداء المذهب الأشعرى .

وكان السلطان طغرلبك سنياً حنفياً ، أما وزيره الكندرى فكان رافضياً خبيث العقيدة ، يضمر الحقد لكل الأشاعرة .

وفى هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذة ، لها فى أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير ومحبة فائقة ، ذلكم هو الأستاذ أبو سهل بنَ الموفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية ، وكان مرموقاً بالوزارة ، ونظراً لما عرف عنه من تعلق بالمذهب الأشعرى ، فقد ألهب ذلك حقد الوزير اللئيم الكندرى ، فأراد أن يكيد له ولكل الأشاعرة .. فذهب إلى السلطان ، واستأذنه أن يَسُبَّ أهل البدعة على المنابر .. فأذِن له ، ولكنه بسبب خبثه حشر اسم أبى الحسن الأشعرى ضمن المبتدعة . وفوجِىء الناس ذات يوم بهذه الحيلة الخبيثة المنسوبة زوراً إلى أوامر السلطان ، فهاج القوم وماجوا ، واشتعلت فى المنطقة كلها فتنة ذات خطر ، وتعرض أصحاب الأشعرى - وفى مقدمتهم القشيرى وأبو سهل الموفق والبيهقى وآخرون من أئمة القوم - لكل ألوان السخرية والإيذاء . وتمَّ القبض عليهم ونفيهم إلى خارج البلاد ، وباءت محاولة الاتصال بالسلطان وتوضيح الأمر له - عن حقيقة الأوضاع - بالإخفاق . فلم يكن بُدٌّ من مهاجرة البلاد .

فترك القشيرى أهله وأسرته وداره فى رعاية ربِّه وعنايته ، وأخذ يتنقل فى البلاد حتى قَدِمَ بغداد ، ووَرَدَ على الخليفه القائم باللّه ، فأكرم وفادته ، وأحسن استقباله ، وعقد له المجلس فى منازله الخاصة ، وفى مساجد بغداد ، وقد شهد

الخطيب البغدادى - صاحب تاريخ بغداد - بعضَ هذه المجالس عام ٤٤٨ هـ وما بعده ، وكتب عنه ، وأثنى عليه وعلى فيض علمه وورعه وقال : « حدثنا وكان ثقة » (جـ ١٠ ص ٨٣) .

وذهب القشيرى للحج ، وهناك التقى بصديقه إمام الحرمين وبعدد كبير من أئمة المشرق الذين هربوا من الأذى والمحنة .

وما أن انتهت مراسم الحج حتى بدأ الجميع يعيدون النظر فى أمرهم ، واختلفت وجهات النظر بين مشجع على العودة ومتردد وبين مؤكد ضرورة البقاء والمجاورة ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على رأى واحد آخر الأمر : هو أن يختاروا واحداً منهم بعد نقاش ثم يمتثلوا لرأيه بلا نقاش .

ومن عجب أن يكون المختار هو القشيرى ، مما يدل على إجماع الرؤية حول صلاحه وفطنته وبُعد رؤيته ، فصعد المنبر وظل يتكلم وهم يستمعون إليه فى شغف زائد .

ومرت لحظات صعبة ، صمت فيها الجميع إلا القشيرى ، وأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه فى ضراعة فائقة إلى السماء ، ثم أعاد إطراقه إلى الأرض مرة ثانية ، ثم قبض على لحيته وصاح فى صوت عال : « يا أهل خراسان بلآدكم بلآدكم ، إن الكندرى غريمكم يُقَطَّع الآن إِرَباً إرباً .. وإنى أشاهده الساعة ، وقد تمزقت أعضاؤه » .

ثم أنشد :

عميدَ الملك ساعدك الليالى على ما شئت من درك المعالى
فلم يَكُ منك شيء غير أمرٍ بِلعْنِ المسلمين على التوالــى
فقابلك البلاءُ بما تلاقـــى فذُقْ ما تستحق مـن الوبـــال

(تبيين كذب المفترى لابن عساكر ط . ليدن ص ٩٣) .

ويقول السبكي : « وضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه ، وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع الكندرى إرباً إرباً ، وأن يرسل كل عضو منه إلى كل مكان » .

أمّا القشيرى فقد كانت هذه السنوات العشر (من ٤٤٥ هـ إلى ٤٥٥ هـ) أشد سنى عمره آلاما ، تشرّد فيها عن داره وأهله ووطنه إلا أنها زادته تجربةً وخبرةً ، ووثقت صلته بعلماء العالم الإسلامى كله ، وكتب فى تلك المحنة كتابه الجميل : (شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة) ونزمع أن ننشره مشروحاً باستفاضة بإذن الله .

ويعود إلى نيسابور مدينته الحبيبة ، ويقضى بها عشر سنوات أخرى مكرّماً محترماً ، ومطاعاً ومعظّماً ، « وبلغ المنتمون إليه آلافاً ، وتصانيفه أطرافا » (تاريخ نيسابور لعبد الغافر) .

ووضعه السلطان ألب أرسلان موضع التَّجِلّة والتكريم ، وتتلمذ عليه صفوة من أهل الطريق ، نهجوا منهجه .

* * *

أبناؤه

تُعرف للقشيرى بنتاً واحدة ، هى أَمَةُ الرحيم ، ورد اسمها فى ترجمة ابنها عبد الغافر الفارسى ، صاحب تاريخ نيسابور (قاموس الأعلام مكتوب باللغة الأوزبكية وموجود بمكتبة الإدارة الدينية للمسلمين فى مدينة طشقند) ، ونعرف له ستة أبناء ، كلهم عبادلة ، وكلهم أئمة ، والبنت والأبناء جميعاً من السيدة فاطمة بنت أبى على الدقاق كما أسلفنا .

وسلك الأبناء مسلك أبيهم فى علوم الشريعة والحقيقة ، وقد ترجم لهم السبكى فى طبقاته ، كما تحدث عنهم ابن عساكر وابن خلكان .

ونحن نثير هنا نقطة هامة : إذ يحدث أن يعثر الباحث على كتاب يكون صاحبُه القشيرى ، فيسرع بنسبته إلى الأب ، وربما كان لعبد الرحمن ، أو عبد الواحد ، أو عبد الله ، أو أى واحد من الأشقاء .. ولهذا نؤكد أن يتحرى الباحث صحة نسبة الكتاب إلى صاحبه .. إذ الكل سواء فى المسلك والمنهج والورع .. ولا عجب فى ذلك . فكلهم فروع من أصل عظيم واحد .

وتحل الشهور الأولى من عام ٤٦٥ هـ ومعها المرض والهزال ، وتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها وهو يصلى واقفاً فى السادس عشر من ربيع الآخر ، ويوارى إلى جوار صهره وملهمه أبى على الدقاق .. فى مقبرة تزار ويتبرك الناس بها حتى الآن .

* * *

دراسة مختصرة
لاهتمامه بعلوم النقل والعقل

سؤال يطرح نفسه : ما الذى جعل للإمام القشيرى هذا الوضع المتميز فى المباحث الصوفية ، بحيث أصبحت كلمته فى التصوف جديرة بالاهتمام والاحترام عبر العصور ، كما ذكرنا فى تقديم هذا الكتاب ؟

فى تقديرنا أن كلمات الرجل أخذت هذه المكانة نتيجة بعض العوامل الهامة :

أولها : أنه رجل من أوساط أهل السُّنَّة المرموقين .. ثم هو يعتز بانتمائه إلى التصوف وأهله .. وهذا فى حد ذاته مناط تدعيم للعلوم الصوفية لا يجترىء أحد على التقليل منه .

ثانيها : أنه رجل وضح من سيرته - كما أوضحنا فى عجالة - أنه أقبل على التصوف بعد أن تزوَّد بزادٍ ثرىٍّ رائعٍ من علوم العقل والنقل . وهذه البداية لقيت تشجيع شيخه الدقاق بعد اتصاله به ، ولم يختط طريق التصوف على نحو عشوائى ، بل هو رجل دارس فاهم واعٍ لكل متطلبات الثقافة الأصيلة فى عصره ، وهذه بدورها لها قيمتها . لأنك لو رجعت إلى الأصول الأصيلة عند كبار رجال التصوف لوجدتها ضرورة إتقان علوم الشريعة وتكريس الإيمان .

ذلك لأن الرحلة الصوفية - فيما بعد - فيها جوانب وعرة ، ربما ينجرف الزورق بصاحبه إلى متاهات ، ربما لا تحتمل إرادته

مصاعب السفر ، ربما غلب الغرض أو المرض على الدافع الأصلى ، ربما أصابته الدعوى والادعاء عند أول بادرة من بوادر الكشف ، ربما .. ربما .

هذه علل يؤتمن العبد من الوقوع فيها ، عندما يكون متحصناً فى الأساس بعلوم النقل والعقل .. وبكلمات أخرى يكون الوعى بكل أطراف القصة حاضراً وداعماً ومؤيداً .

وأخيراً .. فإننا لو قفزنا قفزة هائلة إلى أعظم ما توصّل إليه كبار القوم من نتائج لوجدناهم يلحون على احترام الشريعة واحترام الحقيقة وأن كلتيهما مناط الرجاء ، والمحافظة عليهما معاً بُغية الآمل .. بل هى حقيقة كون المرء عارفاً بالله - حقاً وصدقاً .

لأجل هذا نرانا مضطرين - ونحن نعتذر للقارىء - أن نتمهل قليلاً وسريعاً عند أهم المواقف العقلية والنقلية التى اتخذها القشيرى سبيلاً لاختيار نمط ثقافته الصوفية ، بل بذل فيها أقصى درجات الجهد ، وآية ذلك أنه ترك آثاراً فى علوم الشريعة رائعةً أشد ما تكون الروعة ، فهو - على سبيل المثال - لو أُخذَ مفسراً فعنده ما يكفى لإثبات ارتفاع نجمه فى ذلك ، ولو أُخذَ متكلماً فعنده من المصنفات والآراء ما يمنحه الاحترام والإجلال ، ولو أُخِذَ محدثا فلديه شهادات من تلامذته والذين

أخذوا عنه تثبت جدارته وتصدره .. ومن قبل ذلك وبعده فهو عليم باللغة والأدب ، بل هو شاعر مجيد .. وهذه كلها كانت ذات يوم هى الحدود المعترف بها فى إطار ثقافة المثقف فى عصره ..

فإذا أقبل بعد كل هذا على التصوف .. فهو جدير بأن تكون له من المعطيات والمردودات الفكرية والقلبية والذوقية والعاطفية ونحو ذلك مما يتصل بعلوم الحقيقة ، بحيث يستحق من قارئه فيما مضى من الزمن وفيما نحن فيه الآن وفى المستقبل إن شاء الله - كل التوقير والاحترام .

هى إذاً طبيعة المنهج الذى اخترناه لفحص تصوف الشيخ ، وهى قبل كل ذلك خط سيره التربوى منذ نشأته إلى يفاعته إلى شبابه إلى شيخوخته .

ونكون بذلك قد وضعناه فى المحل اللائق به عندما نتصدى بإذن الله لدراسة (تصوفه) دراسة خالصة ، وهذا ما دفعنا للنص على دراسة « ثقافته » فى عنوان هذا الكتيب .

بل إن هناك تخطيطاً أبعد لأشياء أخرى ، لو تعاملنا مع هذا المنهج فى التناول تعاملاً أكثر دقة وأكثر استفاضة ، ذلك أننا - أهل هذا العصر - نستطيع أن نبدأ فى استجماع قضايا فى علوم الأخلاق والنفس والتربية بل الجمال وغير ذلك من

العلوم المستحدثة ، فتدلى بدلوٍ لنا فيها من واقع التراث الذى تركه لنا أسلافنا العظام أمثال القشيرى ، والغزالى ، والجوينى وغيرهم ، لقد كانت لهم رؤىً أسبق من زمانهم ، وهى فقط بحاجة إلى باحث متعمق ، يستطيع أن يلج إلى هذا المنجم ، ويستخرج الجواهر المغطاة .

صحيح .. أن المصطلحات الحديثة لم تكن لديهم ، وإنما كان لديهم كلمات أخرى ..تعطى ذات المفاهيم ، بل لا أبالغ إذا قلت : كانت أبعد وأدق وأعمق وأقرب إلى روح الإسلام وجوهره .

وليس هذا بمستغرَبٍ على تراث نشأ وترعرع فى كنف كتاب الله الكريم وسنة نبيه العظيم ، ولكل منهما عظمته فى النفاذ إلى أعمق أعماق الكون : بحاره وأرضه وسمائه ، وإلى أعمق أعماق الإنسان : نفسه وخلجاته وعلله وآفاته .. وأدوائه ..

ورائدنا فى هذه الرسالة .. الاختصار وحسن الاختيار للدلالة على ما نقول - بتوفيق من الله سبحانه .

* * *

القشيرى وعلم الكلام

ذكرنا من قبل أن القشيرى كان من أكابر الأشاعرة فى عصره ، وذكرنا أنه تعرض فى سبيل ذلك لأعظم محنة ألمت به فى حياته .

وتبرز أهمية قصدنا إلى توضيح هذا الجانب فى ثقافته حين نستمع منه إلى دفاع عن التصوف وأهله ، حيث يقول مثلاً :

« إن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحق فى مسائل الأصول » (الرسالة القشيرية ص ٥) .

ويقول : « إنهم بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ... » (الرسالة : ص ٣) .

وأنت تلحظ أثر علم الكلام ، وهو ينعكس على الموضوعات الصوفية بأضواء كاشفة مقنعة ، (راجع مثلاً كلامه فى موضوع الولاية وموضوع الكرامة ، ومبحث رؤية الله ، وربطه موضوع الإرادة - وهو صميم الجهد الصوفى - بموضوع الحرية

الإنسانية التى نعرف أنها شغلت مساحة كبيرة فى علم الكلام بين الأشاعرة والمعتزلة ... وهكذا .

ومن تحصيل الحاصل أن نصفه بأنه خصم لأهل الاعتزال ، فهو أشعرى صلب ، يقول مثلاً : « كان الأشعرى على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة الخارجين من الملة سيفاً مسلولاً » ويقارن بين المعتزلة « الذين حاولوا أن ينزهوا اللّٰه من حيث العقل فأخطأوا ، وبين الصوفية الذين نزّهوه من حيث العلم فأصابوا » وتلك عبارة قد نتوقف عندها بعد قليل لنكشف ما يكون فيها من بعض الغموض .

ونقتطف هنا عبارة أكثر تفصيلاً ، جاءت فى كتابه « شكاية أهل السنة » : « زعم المعتزلة أنه (يجب) على اللّٰه أن يثيب المطيع ، (ويجب) عليه أن يعذب العاصى ، فطاعة المطيعين علة فى استحقاقهم ثوابه ، وزلات العاصين علة استحقاقهم عقابه ، ولكن أهل السُّنّة من الأشاعرة وكل من خالف المعتزلة يرون أنه سبحانه (لا يجب) عليه شىء ، لأن الخلق خلقه والملك ملكه والحكم حكمه ، وله أن يتصرف فى العباد بما يشاء ، وله أن يوصل الألم أو اللذة إلى من يشاء » .

* * *

وفى مسألة الذات والصفات الإلهية يثبت القشيرى للّٰه سبحانه

صفات الجلال من قدرة وعلم وإرادة وحياة وبقاء وسمع وبصر وكلام .

فهو بهذا يدحض مقولة المعتزلة بنفى الصفات خوفاً من التركيب ، أو إضافة الزيادة ونحو ذلك مما هو معروف فى عرف المعتزلة الذين يصفون أنفسهم لهذا بأنهم : أهل التوحيد !!

وللقشيرى فى كتابه : « التحبير فى التذكير » تفرقة جميلة استفاد منها الغزالى بين اسم الذات : وهو الله أو الرحمن (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن .. -) .

وبين صفات الذات ، وهى التى قامت بها الذات منذ القدم - أى قبل نشأة المخلوقين والمخلوقات مثل السميع والبصير والمتكلم ، وبين صفات الفعل : وهى تلك الصفات التى تعمل فى الكون مثل « الوهاب والرزاق والمحيى والمميت والقابض والباسط » الخ .

ولنا عودة مع كتاب التحبير فى موضع قادم إن شاء الله .

وينفى القشيرى كل دعاوى التشبيه والتمثيل فى المواضع التى يتمسك فيها بعض الحَرفيين تمسكاً مهلكاً مثل و ﴿ جاء ربك ﴾ ، ومثل (اليد) و (العين) و (الوجه) .. ونحو ذلك فيلجأ كالأشاعرة إلى التأويل الذى تتسع له طبيعة اللغة العربية فى (المجاز) .

فيصبح المعنى جاء أمر بك ، واليد بمعنى النعمة تارةً وبمعنى القدرة تارةً أخرى ، والعين بمعنى الرعاية والحراسة ، والوجه بمعنى صفة الله « وفى بقاء الوجه بقاء الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعرف بالعقل ، أما الوجه فلا يعلم بالعقل ، وإنما يعرف بالنقل والأخبار » { لطائف الإشارات فى الآيات التى ورد فيها لفظ (الوجه) } وفى قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ خطاب لهم على قدر فهمهم وإلا (فأى خطر للأكوان عند صفاته ، جلَّ قدره عن التعزز بكرسىّ أو بعرش) (لطائف الإشارات تفسير آية الكرسى) .

* * *

وتناول الشيخ قضية الحرية الإنسانية ، أو بكلمات أخرى هل الإنسان مُسَيَّر أم مخيَّر ؟

ومن المعروف أن المعتزلة قد منحوا الإنسان حرية كاملة ، على أساس أن الحرية مدار المحاسبة فى الآخرة ، ولكى يكون الله (عادلاً) فى حسابه يجب أن يكون العبد حراً فى تصرفاته ، ولهذا سمّوا أنفسهم أهل العدل .

أما الأشاعرة - والقشيرى منهم - فمع إيمانه بأن للعبد اختياراً ، إلا أنه يتم بفضل الله (بإلهام أو تعريف أو تيسير

أو هداية أو تمكين من قبل الله للعبد) .. وهذه كلمات اخترناها من مواضع شتى متفرقة فى مصنفاته ، لكى تحدد الإطار الذى أدير داخله هذا الموضوع الحسّاس ، لأن الله صاحب الكون ، ولا يعقل أن يكون فى داخل هذا الكون مَن يملك حرية كاملة سواه ، وإلا تعدد الفاعلون فى داخل هذا الكون .. لا بد إذاً من أن نشعر بالتدخل الإلهى فى أفعالنا .. ولن يتدخل الله إلا بالخير .. وتدخله هو الخير .. فالله خير ، والعبد عبده ، ولن يختار له إلا ما هو أفضل وأقوَم .. حتى لو ادّعى الإنسان - نتيجة قصوره العقلى - أنه يفهم موقفه الحياتى .. فالخير قد يكون من الشر ، والحياة نفسها تدلنا على ذلك .. فكم من مرة نأسف لأن طائرة أو قطاراً أو سفينة قد غادرت قبل أن نصل إليها ، ثم نفاجأ بعد قليل بأنباء كارثة حَلّت بها !! فنشكر الله على المنع !!

والواقع أن القشيرى قد وجد فى (التصوف) إتماماً لهذا التصور ؛ فظهر عنده ما يمكن أن نسميه (علم الكلام الصوفى) ، وسنشير إليه فى حديثنا عن تصوفه ، ونرجو القارىء أن يضم - إن شاء الله - محصول ما يقال فى التصوف فى هذه الجزئية إلى الموقف الكلامى ، ليعلم أن التصوف رافد ثرى يأخذ من المعارف الخارجية ، ويعطيها أيضاً ، فهو مدد فياض .. عند من يتذوقون الحقائق !!

إننا نرى أن ربط الثواب والعقاب بفضل الله أقوَم من ربط الثواب والعقاب بأى شىء آخر ؛ لأن قياس عمل الإنسان بالنسبة لله على عمل الإنسان بالنسبة للإنسان قياس خاطىء ؛ لأن الله سبحانه لن يعود عليه شىء من طاعة العبد ، فهو أسمى وأعظم ، ولن ينقصه شىء بمعصية العبد ، فهو أسمى وأعظم (إنما المحسن يحسن إلى نفسه والمسىء يسىء إلى نفسه) - هذا هو الأصل .

أولى أن يحال الأمر كله لله ثقةً فى فضله وأملاً فى ألطافه .

* * *

رؤية الله

للقشيرى آراء كلامية كثيرة جداً فى موضوعات مثل « الحسن والقبيح ، والخير والشر ، ومسألة خلق القرآن ، والرسل ، والشفاعة ، والشيطان ، والجنة والنار ، ونحو ذلك مما هو فى بطون كتبه المتخصصة فى هذا المجال ، ولكننا هنا نكتفى فى عجالة بعرض نماذج من ثقافته ، كى يقترب منه القارىء الذى لم يعرفه من قبل ، هذا فضلاً عن أننا نختار - عن عمد - موضوعات كلامية لها أصداء فى علوم الصوفية ، فالتصوف هو رائدنا فى هذه الرسالة الآن .

ولمن أراد التوسع أن يرجع إلى أصول مصنفات القشيرى التى أعاننا اللّه – سبحانه – على تحقيقها وشرحها والتعليق عليها منذ أكثر من ربع قرن .

نعود إلى موضوعنا « رؤية اللّه » ، ومن البدهى أن تحتل هذه الفكرة حيزاً ضخماً من اهتمام القشيرى متكلماً وصوفياً .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الرجل يميز بين اصطلاحين : المشاهدة والمعاينة ، فمن منظور صوفىٍّ المشاهدة الرؤية بالبصيرة ، والمعاينة هى الرؤية بالبصر – والشيخ لا يجيز هذه الأخيرة فى الحياة الدنيا – وإن كان ينقل فى « رسالته » نصاً عن أستاذه ابن فورك : « أن الأشعرى قال بذلك فى كتاب الرؤية الكبير » .

ولكن القشيرى لا يتحمس لذلك ، وليس أدلّ على ذلك من قوله فى تفسير بسملة سورة البروج : « بسم اللّه ، اسم لم يَرَه بَصَرٌ إلا واحد ، وهو أيضاً مُختَلفٌ فيه » وغير خافٍ أنه يقصد المصطفى صلوات اللّه عليه وسلم .

أما رؤية اللّه فى الآخرة فالقشيرى يُقرها ، ويتحمس لها ، كما فعل الإمام الشافعى .

فى ضوء ذلك نستطيع أن نفهم عبارة للقشيرى مثل « اليوم

سراً بسر من حيث المشاهدة ، وغداً جهراً بجهر من حيث المعاينة » .

وسنرى أن « السر » فى تقسيم القشيرى للملكات الصوفية هو موضع المشاهدة فى المعراج الروحى .

وهكذا يمكنك أن تفهم تفسيره عند ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ﴿ والحسنى وزيادة ﴾ الحسنى هى الجنة والزيادة هى الرؤية .

وهى على العموم رؤية « لا تحتاج إلى حدقة عين أو تقليب مقلة فى جهة بل يرونه بلا كيفية » فالأمر جارٍ فى الحياة الأخرى .

ولسنا نخفى إعجابنا باتجاه القشيرى فى هذا المجال : فهو قد حسم كثيراً من الأمور ، وأبان للأدعياء والمغرضين والجهلة حدود الكشف ، والمعارف العليا .. مهما تصاعد الغبد فى معراج العرفان !! ، وهكذا يتضح اللقاء بين مباحث علم الكلام وأخص مسائل التصوف - فهذا هو الهدف البعيد .

* * *

القشيرى والتفسير

اتصل القشيرى بالتفسير على مرحلتين :

١ - مرحلة ما قبل التصوف ، وثمرتها « التيسير فى التفسير » .

٢ - مرحلة التصوف ، وثمرتها تفسيره الإشارى الذائع الصيت : لطائف الإشارات . وكان من حسن الحظ أن نقوم بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه ، ويقع فى ستة أجزاء كبيرة ، أمّا آخر طبعة له (الهيئة العامة للكتاب) فجعلته فى ثلاث مجلدات كل منها جزءان كبيران .

أما « التيسير » فقد وقع لنا منه أكبر قدر فى الحجم يعرفه الناس ، إذ عثرنا عليه فى مكتبة شرق شناسى بطشقند ، وهو الجزء الخامس من الكتاب ، ثم قمنا بإجراءات تحميضه (أى الميكروفلم) بحيث أعددناه للقراءة ومن ثمّ للنشر .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أنه تفسير تقليدى ، نحا فيه المفسر منحى المفسرين الذين يبذلون الجهد فى خدمة النص القرآنى من حيث اللغة والاشتقاق والنحو والتصريف ، والقراءات وأسباب النزول .. الخ .

وهو لا ينسى أن يذكر عدد آيات السورة وعدد حروفها ويبين - إن وجد - اختلاف أماكن نزول آية عما سبقها أو لحقها .

ومع أن « التيسير » بهذا الوصف تعبير عن مرحلة عمرية وثقافية إلا أنه لا يخلو من مواقف صوفية ، وهي وإن كانت قليلة إلا أنها تعطى انطباعاً كافياً بميل غريزى نحو هذا الجانب فى المستقبل .

وهناك شيء آخر .. إننا نلمح هنا انتماء القشيرى إلى مدرسة ابن عباس فى التفسير ؛ فمن السهل أن نعثر على اسمه فى مواضع شتى ، ومن السهل أيضاً أن نعثر على أسماء تلاميذ هذه المدرسة أمثال مقاتل ، والحسن ، وزيد بن أسلم ومجاهد وقتادة .. وغيرهم .

ومع احترامنا الشديد لابن عباس فهو « حبر الأمة » ، وهو الذى دعا له النبى صلوات الله عليه وسلامه بقوله : « اللهم فقّهه فى الدين ، وعَلّمه التأويل » ، وهو الذى وصفه عمر بن الخطاب بقوله : « أعلم أمة محمد بما نزل على محمد » .. ومع كل هذا إلا أننا نعرف من واقع تجارب عديدة أن بعض تلاميذ مدرسته أو الذين ألصقوا أسانيدهم به ليسوا فى بعض الأحيان عند المستوى المطلوب ، وأخذ عليهم النقاد مآخذ كثيرة أقلها احتفالهم بالإسرائيليات والنصرانيات فى التفسير بدون داعٍ .

وقد أخذنا فى بحث مستفيض على القشيرى وقوعه - خصوصاً فى باب القصص - تحت تأثير هذا الرافد الثقافي ، وهذا إن تجلّى بصفة واضحة فى « التيسير » إلا أنه تخفف منه كثيراً جدا فى « اللطائف » .

● لطائف الإشارات : فى رأينا أن هذا هو أهم آثار القشيرى ؛ ولهذا قلنا ذات مرة إن « الرسالة القشيرية » ظلمت الرجل حين شهرته ، وأبقت اسمه وقفاً عليها حتى لم يكد كثير من الناس عبر العصور يعرفه إلا من خلالها وحدها ، وهى - وإن استحقت كل هذا الاحتفال - إلا أنها ليست مطلقاً أهم من لطائف الإشارات ، لأن الرسالة مثال للتأليف المنبنى على جمع الأسانيد ، وفيها تراجم لبعض الشيوخ ، وفيها شرح لبعض الألفاظ الاصطلاحية فى التصوف .. وهذه كلها يمكن أن يسد مسدها مطولات فى كل هذه المجالات مثل كتب الطبقات للسلمي وللشعرانى وللمناوى وغيرهم . والتعرف للكلاباذى ، وقوت القلوب للمكىّ ، والإحياء لأبى حامد الغزالى .. واللمع للسراج .. إلخ .

أمّا اللطائف فهو مثال للتأليف الابتكارى ، فهو من هذه الناحية ينم عن عبقريته الذاتية ، ونظير « اللطائف » نادر جداً .

فإذا علمنا أن اللطائف يفسر بسملة كل سورة فى القرآن

الكريم تفسيراً خاصاً ، يتعلق بالسياق العام للسورة - وتلك مسألة اكتشفناها بغد تجربة طويلة امتدت سنوات ، وأضفنا أنه يفسر القرآن يطريق الإشارة لا بطريق العبارة ، بمعنى أنه يغترف من العلوم الصوفية والمعارف العليا ما يحقق المرامى البعيدة من الآية وأحياناً من اللفظة .

والإشارة عند الشيخ لا تنطلق من فراغ .. بل هى أولاً مسبوقة باستعداد سلوكى ، يتصل بالتطهر والتنسك وبكل ما يليق بالإقبال على كتاب اللّه المجيد .. وهى فيوضات تنثال وكأنها مياه تتفجر عنها ينابيع لا تكاد تنفد ...

ولا أبالغ إذا قلت إننى طوال اشتغالى بهذا الكتاب مدة عشر سنوات كوامل اقتطعتها من عمرى ومن بصرى ومن عافيتى لم أشعر بالكلال أو الملال ، إنما كنت أعايش الرجل كأنى مشمول بكراماته .. وليس هذا مجافاة - كما قد يظن البعض - للروح الأكاديمية التى لا تعرف إلا المشاعر الموضوعية الجافة .. ولكن هكذا كانت طبيعة الموضوع ، ومجلس الشيخ ، وحسن التأدب عليه .

إنه تفسير يرتبط بالمجاهدات والمكابدات والمذاقات ، وكلها ناتجة أو مؤدية إلى صفاء البصيرة ، ثم إلى ضرورة الارتباط بالعمل بما تطمح إليه الآيات الكريمة ... من بعيد .

إن هذا التفسير خاص أو قُلْ إنه بلغة حديثة « أرستقراطى » لأنه للطبقة الخاصة أو لخاصة الخاصة ، ونظلم هذا التفسير لو كلفنا فرداً عادياً بقراءة متونه واستكشاف نواياه ، لأنه يحتاج إلى مواهب من نوع معين ، والشيخ يعترف بذلك .. فينسبه - لا لفضل فيه - بل للاجتباء الإلهى ، فهو مضنون به على غير أهله سواء من البداية أو بالوسيلة ثم بالغاية .

ومن عجب .. أن يلقى التفسير بعد أن قمنا بتحقيقه ونشره والتعليق عليه منذ ربع قرن نجاحاً منقطع النظير ، فيقبل الناس عليه إقبالاً لافتاً .. إنه حقاً شيء ثمين ! .

أو كما يقول بروكلمان : « إنه سفر على جانب كبير من الأهمية لولا أنه مبعثر فى كل أرجاء المعمورة » .

وأعترف أن الفضل لله وحده ، ولكرامة الشيخ فى اصطبارى على جمعه والجرى وراء نسخه المبعثرة .. والحمد لله أولاً وآخراً .

* * *

إن أبرز ما يتجلى فيه التفسير الإشارى فى هذا الكتاب - فى تقديرنا هو عند المواضع الآتية :

١ - البسملة فى أوائل السور .

٢ - الحروف المقطعة التى هى بطبعها إشارة أكثر منها عبارة .

٣ - الأحكام التشريعية ، وكيف يستنبط منها للصوفية أنماطاً خاصة فى التشدد لأنهم أهل خصوص ، ولا شغل لهم إلا بالله سبحانه .

٤ - أسباب النزول والقصص .

٥ - خلق الإنسان ، وما يتصل بالإنسان من قضايا تمس تركيبه الثنائى من جسدٍ وروح ، وتمس ملكاته فى المعرفة ، وتمس عاطفته ووجدانه .. إلخ .

والقارىء ينتظر منا أن نضرب أمثلة - وهذا حقه .. ولكننا سنتأذن فى التقليل من ذلك قدر الإمكان لأن الغرض من هذه الرسالة شىء آخر .

خذ مثلاً تفسيره لبسملة سورة الحجر : « سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليُعلم أن الإثبات والإسقاط بلا علة ، فهو سبحانه لم يقبل مَن قبل لاستحقاق علة ، ولا ردَّ مَن ردَّ لاستيجاب علة (تذكر الوجوب عند المعتزلة) . فإن قيل العلة فى إسقاط الألف كثرة

الاستعمال فى كتابة بسم الله أشكل بأن الباء من بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها بسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال موجود .

فلم يبق إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة : « يرفع من يشاء ويمنع من يشاء » .

قد يقال إن التعليلات هنا مسائل فى قواعد الكتابة والإملاء .. ولكن ليس هذا هو المهم .. إنما المهم هو التعريض بالفكر الاعتزالى من ناحية وتنبيه الصوفية إلى أنه سبحانه يقبل أو يردّ بمشيئته واجتبائه من ناحية ثانية .. فلا اعتراض فى كل الأحوال .

ومن ناحية ثالثة .. هو يريد أن يثبت أصلاً كلامياً فى مذهب الأشاعرة ، وهو (أن حكم الله لا يُعَلّل) ولا ينبغى إخضاعه للعقل الإنسانى القاصر .

ومن ناحية أخيرة .. وهى فى نظرنا شيقة جداً : أنك لو تعمقت داخل السورة لأدهشك ما أدهشنى أن السورة تتحدث عن رفع الخَلْق وخفضهم بلا علة - كما فى قصة آدم والملائكة ، فعندما اندهش الملائكة عند قوله سبحانه : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ﴾ فأظهر سترهم لأنهم نظروا

إلى القوالب ، ولكن الاعتبار بالمعانى التى يودعها ، فالملائكة استصغروا قدره وحاله (لأنه من طين) ، وتعجبوا من أمره لهم بالسجود ، فكشف لهم شظية مما اختصهم ، فسجدوا للأمر . وكذا حال من ادّعى الخيرية .

أما إبليس فلم يفطن للمشيئة الإلهية ، وبقى على عناده متأبيا أن يسجد لمخلوق من صلصال .. إنه لا يعرف أن مشيئة الله تعالى تجرى على غير علة » .

وفى قصة مريم يتوقف عند : ﴿ وهزِّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ ونلخص رأيه فى سبب فعل الأمر ﴿ هزى ﴾ على النحو التالى : حينما كانت مريم متجردة من كل العلاقات ، ومنقطعة إلى التعبد .. كان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً .

أمّا الآن فهى (مأمورة) بالسعى للرزق ، لأنها مقبلة على علاقة اجتماعية ، فلسوف يكون لها ولد ، ليعلم أننا مأمورون بالسعى لا بالتواكل ، لأننا مسئولون عن عيالنا ، وبرغم ما هى فيه من ضعف .. ضعف الأنثى الفطرى ، وضعف حال الحمل قبيل الوضع ، والضعف الناجم عن الخوف ، فهى ليست من قوم سوء ، وليس لها زوج ، وتخاف أن تلوكها الألسنة بفاحش الاتهام ، ولا تعرف أين تستقر ، وأين تلد وكيف ستلد ..

وهى وحيدة منفردة دون معين .. (فأمرت) بأن تهز جذع النخلة !!! ليتساقط عليها الرطب الكثير ..

لتعلم أن الذى قدر على منحها كل هذه القوة رغم كل هذا الضعف ، سيرزقها الولد على نحو غير مألوف وغير عادى .. أى أن ذلك كان تقدمة لوضع غريب فريد !! فقدرة اللّه غالبة فى كل الأحوال .

ووجد القشيرى فى مسألة (خلق الإنسان) فرصاً سانحة لإبداء رأيه فى بيان قدر الانسان بالنسبة لسائر المخلوقات ، وقدره حين يقع عليه الاختيار الإلهى فتنمو فى قلبه هذه المحبة الفائقة الشريفة التى تنقله من أحواله الخسيسة إلى المنازل النفيسة .. استمع إليه وهو يقول عند : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ : (مهين أى حقير ذكَّرَهم أصل خلقتهم لئلا يُعجبوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بنى آدم ، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان فى أصله ، كان نطفة وفى انتهائه جيفة ، وفى وسائط حاله كنيف فى قميص ، فبالحرى ألا يُدلَّ ولا يفخر - وكان أصله قطرة ثم صوَّره فأحسن صورته .. فهو قادر على أن يُرَقيك من الأحوال الخسيسة إلى المنازل الشريفة النفيسة) .

وكم أبصرت من حُسنٍ ولكن   عليك من الورى وقع اختيار

ويقول تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ ويقول : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ويقول : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾) .

وعند ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾ يرى فى ذلك تفضيلاً للإنسان على الملاك إذ منحه صفة من صفاته ، وهى (العلم) ، بينما وصف الملائكة بالعبادة والتسبيح والطاعة (والطاعة سمة العبيد) فليلحظ القارىء هذه اللفتة الذكية البعيدة !

وفى لجاجة إبليس وحجيته بأنه من نار ، بينما الإنسان من طين ، يقول (ادعى اللعين الخيرية مع أن الماء يطفىء النار فتصبح رماداً ولا يجىء منه شىء ، بينما الطين (أى الإنسان) ينجبر كسره إذا وقع عليه الماء .. فلهذا حين نزل ماء العناية على آدم قال تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ بينما انطفأ اللعين إلى يوم القيامة ﴾ .

* * *

القشيرى المحدِّث

عاش القشيرى فى نيسابور ، وهى من أغنى بلدان العالم الإسلامى فى الثقافة الحديثية ، ويكفى أنها أنجبت مسلماً بن الحجاج صاحب « الصحيح » الذى يُفضله بعض النقاد على البخارى .

وعندما وصل القشيرى إلى الثلاثين من عمره تبوأ رياسة مجلس الحديث فى مسجد المطرز ، وفى المتفى كانت قد سبقته شهرته إلى بلدان المشرق ؛ فكانت الناس تهرع لسماع درسه فى الحديث ، وتخرّج عليه كثيرون ، منهم الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد ، وابنه عبد المنعم ، وحفيده هبة الله عبد الرحمن ، والفراوى ، والشحامى .. وغيرهم .

واهتم القشيرى بالحديث فى كتابين هما « الرسالة » و« المعراج » ، ويقول بعض من كتب سيرته إن له كتاباً مفقوداً اسمه « الأربعون حديثاً » .

فى « الرسالة » وصلت الأحاديث إلى المائة ، وكثير منها مروىٌ بإسناده ، وهى فى منهج تأليف الكتاب تأتى بعد الآية أو الآيات التى وردت فيها « اللفظة » عنوان الباب مثل كلمة « الذكر » أو « التوكل » أو « الرضا » أو « التوبة » ، فكأنما يريد من بعيد أن يقول لنا إن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية مستمد من القرآن والسُّنَّة ، وأنهم لايستحدثون جديداً يا من تشككون فى الأصول الإسلامية للتصوف ؟ !

وآية ذلك أن الاهتمام بالحديث يبلغ مداه حين لا يجد الشيخ « لفظة » الباب غير واردة فى القرآن الكريم مثل لفظة « الزهد » ؛ فإنها وردت فى القرآن ولكن على معنى غير متحمل لرائحة

التصوف ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ ، فعندئذ يهرع القشيرى إلى الحديث الشريف ، فيروى مجموعة منه حاملة ريح التصوف من قريب ومن بعيد ، على نحو يقنعك بأصل إسلامى عريق لمادة الزهد لغةً واصطلاحاً .

وأحياناً تأتى الأحاديث فى « الرسالة » حاملةً المعانى المتشعبة لأطراف الموضوع الواحد ، فمثلاً باب « الفتوّة فى الرسالة » هناك حديث يقرب معناها ، وهناك حديث يتحدث عن « البذل » ، وهناك حديث يتحدث عن « المروءة » وعن « الإيثار » . وكلها معانٍ تتجمع فى موضوع الفتوة ، فهى مجمع كل هذه الفضائل ، وهو يستعين بالحديث لتدعيم آرائه فى التصوف ، مثل موقفه من « الرؤيا » ، وموقفه من « الصفاء » الذى يمكن أن تشتق منه كلمة التصوف .

أمّا فى كتاب « المعراج » فالأحاديث تكوّن ثلث الكتاب فيما بين صفحتى ٢٧ وصفحة ٦٤ .

والسبب فى ذلك فى رأينا أنه يعلم أن الحديث – وليس القرآن – هو المسئول عن تفاصيل قصة الإسراء والمعراج بغض النظر عن فكرة الحديث الصحيح أو الموضوع .. فالأحاديث أتخمت القصة .. أما القرآن الكريم فلا يتجاوز الكلام عنها موضعاً فى سورة الإسراء ، وفى سورة النجم ، ولو اقتصر الأمر

على القرآن الكريم فقط لما تجاوزت الإطار المحدود الذى أريد لها ..

وليس معنى هذا أننا نقول إن القشيرى قد انساق وراء الحديث فى « المعراج » انسياقاً جارفاً .. لا .. بل هو مستجيب لمقتضيات الموضوع على نحو معقول ، وآية ذلك أن رواياته لم تخلُ من نقده أحياناً ، وبخاصة فى الإسناد أو المتن ، فيقول مثلاً : « وهذا لفظ همّام عن قتاده ، وحديث سعيد بن أبى عروبة بنحوه ، ولكن ليس فيه ذكر الحسن ، وقال بمكان (قد خبرت الناس) ، قال : (بلوت) ، وزاد فيه (عن عبادى) ، و(جعلت كل حسنة عشر أمثالها) ، وليس فى حديث همّام ذكرُ الجارود .

ويقول عن : « رأيت ربى ، وفى رجليه نعلان من ذهب » : إن هذا من مناكير الأخبار !! ، فهذه الحاسة النقدية المعروفة فى علم مصطلح الحديث .

* * *

القشيرى الفقيه

عاش القشيرى فى ظل دولتين ، غَلَبَ عليهما المذهب الشافعى : الدولة الغزنوية ، والسلجوقية ، بل كان المذهب الشافعى أحد المقررات الدراسية الأساسى فى المدارس النظامية .

القشيرى وأبناؤه الستة من كبار الشافعية ، وقد ترجم لهم السبكى فى « طبقاته » .

ويحتج القشيرى بوجهة نظر الشافعى فى كثير من مسائل التصوف - حينما يختلف الرأى حولها مثل موضوع « السماع » ، فيقول : « كان الشافعى رحمه الله لا يحرمه - وإن كان يجعله فى العوام مكروها - حتى لو احترف الغناء ، أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهى ، ولا يُلحقه بالمحرمات » (الرسالة القشيرية : ص ١٦٦) .

ويحتج بأقوال أئمة الشافعية فى هذا الخصوص فى موضع أكثر تفصيلاً ، فيقول : « سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى - وهو أحد فقهاء الطبقة الثانية ومن كبار الأئمة فى خراسان - يقول : المستمع بين استتار وتجلٍ ، فالاستتار يوجب التلهيب ، والتجلى يورث الترويح . الاستتار تتولد منه حركات المريدين ، وهو محل الضعف والعجز ، والتجلى يتولد منه سكون الواصلين - وهو محل الاستقامة والتمكين .. وتلك صفة الحضرة .. وليس فيها إلا الزبول تحت موارد الهيبة » الرسالة : ص ١٦٩ .

وهو لا ينسى فى أحيان كثيرة أن يشير إلى المذهب الفقهى الذى ينتمى إليه الشيوخ ، فيقول مثلاً (كان الجنيد على مذهب أبى ثور ، ورويم على مذهب أبى داود ، وداود الطائى يواظب على دروس أبى حنيفة ، والشبلى على مذهب مالك) تراجم الشيوخ فى الرسالة .

ونكتشف أنه كانت تقع أحيانا بعض الاحتكاكات الاستفزازية من الفقهاء تجاه الصوفية ، فنشعر من رواية القشيرى تحيُّزه لجانب الصوفية (لأن اللّه إذا اختار ولياً علّمه) ، مثال ذلك (سأل بعضُ الفقهاء الشبلىَّ اختباراً له فى العلم : « يا أبا بكر : كم فى خمسٍ من الإبل ؟ »

فأجاب الشبلى : « أمَّا الواجب فشاة ، وأما عندى فكلها للّه » ، فقال له : « وما دليلك ؟ » قال :

خرج أبو بكر عن ماله كله للّه ورسوله ، فمن خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر ، ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فإمامه عمر ، ومن أعطى للّه ومنع للّه كان إمامه عثمان ، ومن ترك الدنيا ، لأهلها فإمامه على .. وكل علم لا يدلُ على ترك الدنيا فليس بعلمها » الفتوحات الإلهية : ص ٨٨ .

وإلحاح القشيرى على إثبات مقدرة الصوفية على إصدار الأحكام الفقهية يعود - فى تقديرنا - إلى إثبات ما بين

الشريعة والتصوف من صلات وثيقة ، وثانياً إلي أن الصوفية ليسوا من طبقة الجهلاء كما يحلو للبعض أن ينعتهم ، وثالثا أنهم وإن سلكوا مسالك الأحوال والأذواق والمواجيد ، فلم ينأوا عن اتباع الشرع عن فهم ووعى وإلا (حُرِموا الوصول لتضييعهم الأصول) « الرسالة : ص ١٩٧ » .

وهو من بعيد ينبه المريدين إلى أن يأخذوا معارفهم من الشيوخ ، وأن يثقوا فى مشورتهم ، وإلا احتاج (إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة) ، وهو يريد لهم أن يكتفوا بما فى بيئتهم ، ففيها كل ما يحقق المطلوب .

هذا ، وسنسوق عند الحديث عن « تصوفه » نماذج من تشدداته فى تناول مسائل الفقه بالنسبة للصوفية ، على أساس أن الشريعة للكافة ، بينما حينما تصل إلى قوم لا شغل لهم إلا بالله وفى الله ، فالأمر بحاجة إلى جانب من التشدد ، وسنضرب لذلك أمثلة كافية إن شاء الله وبخاصة فى موضوع « الترخص » .

* * *

تَصَوُّفُهُ

إهداء

الصفحات القادمة مهداة إلى روح أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى إحياءً لذكراه العاطرة واعترافاً بفضله ، وأظن أن أخى الكريم الدكتور الجليل أبو الوفا التفتازانى - وهو مثلي أحد تلاميذه المقربين - يوافق على ذلك اقتداء بما كان يفعل التلاميذ في عهد سلفنا الصالح لتوقير شيوخهم .

أ . بسيونى

يحدثنا القشيرى فى مواضع شتى من مصنفاته عن تجربته الشخصية فى التصوف ، وسنحاول أن نستجمع من كل ذلك ما يكفى لتكوين الإطار وملامح الصورة .

وقد يبدو الأمر سهلاً عند بعض الناس ، فالكتب كثيرة ، والكلام عن التصوف يكاد يكون لُحمة هذه الكتب وسداها .. ولكننا نميز بين القشيرى الباحث الصوفى - وبين القشيرى الذائق . صحيح إن شخصّية المرء لا تتجزأ ، وليس كل ما يسجله نقولاً عن الشيوخ ، ولكن يبقى فى الميزان العلمى الدقيق فرق بين من يكتب عن وعيٍ للصوفية ، وبين ما ينطلق عنه وهو فى حالى الفناء والشهود من كلمات ومعارف ..

بدايةً يحدثنا القشيرى عن (طريقته) فيقول إنه أخذ عن الدقاق ، والدقاق عن النصراباذى ، وهذا عن الشبلى ، وهذا عن الجنيد ، وهذا عن السرى عن معروف عن داود الطائى ، وداود لقى التابعين (الرسالة : ص ١٤٧) .

فإذا ما اقتربنا من القشيرى الشاب (المريد) نجد - كما قلنا من قبل - تقديراً للشيخ ، وأنه كان يعتبره رمز القوة العليا الجديرة بالانضواء تحت تأثيرها ، ونعتقد أنه كتب ما كتب عن علاقة المريد بالشيخ والشيخ بالمريد بهذه الطريقة الرائعة التى تنال الإعجاب إلا من واقع تجربته مع الدقاق .

خُذْ مثلاً هذا النص الذى يكشف لنا عما كان يشعر به كلما أقبل على مجلس الشيخ : « لم أدخل على الأستاذ أبى على - رحمه الله - فى وقت بدايتى إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة ، فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرتُ مرة ودخلت ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز فىَّ إبرةً مثلاً لعلّى كنت لا أحسّ بها .

ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى ، لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة ، فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى .

وغير مرة رأيت منه هذا عيانا . ولا أذكر أنى فى طول اختلافى إلى مجلسه ، ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى ، أو خطر ببالى عليه قط - اعتراض ، إلى أن خرج - رحمه الله تعالى - من الدنيا » (الرسالة : ص ١٤٧) .

والقشيرى المريد يتبع شيخه الدقاق فى حله وترحاله ، ويرتاض رياضته ، ويتقفر القيافى فى صحبته ، ويخرجان معاً فى أسفار بعيدة ، هى فى عرف الصوفية وسيلة من وسائل التهذيب البدنى والخلقى ، وفرصة للعزلة ومحاسبة النفس والتوكل واحتمال البلاء ، ومن النصوص التى تحدَّث فيها القشيرى عن شىء من ذلك : « كنت مدة كون الشيخ - رحمه

الله – فى نيسابور أخدمه ، وأواظب على القراءة فى مجلسه، فرأيته يوماً فى البادية ، تطهَّر ونسى قمقمة كانت بيده ، فحملتها فلما عاد إلى رحله ، وضعتها عنده ، فقال : « جزاك الله خيراً ، حيث حملت هذا » ثم نظر إلىَّ طويلاً كأنه لم يرنى من قبل .. وقال : « رأيتك مرة !! مَنْ أنت ؟ » فقلت : « المستغاث بالله تعالى .. صحبتك مدة ، وخرجت عن مسكنى ومالى بسببك ، وتقطعت فى المفازة بك ، والساعة تقول لى : رأيتك مرة !! ؟ » (الرسالة : ص ٤٠) .

وفى الحياة العادية لا تَحول النزعة الصوفية بين القشيرى وبين القيام بعمل من الأعمال ، فهو يشتغل بالتدريس فى نيسابور وبغداد ومرو وخَسَا .. وغيرها ، ولكن لا يتكالب على هذه الأعمال قصد المال أو الحظوة ، وإنما لمجرد مسئولياته الأسرية (راجع ما قلناه فى تفسيره الإشارى لقصة مريم وجذع النخلة والأمر بالسعى على الرزق) .

وهو يضع حداً فاصلاً لهذا الأمر ، فيحذر قائلاً : « العالِم إذا ارتفق بأموال الناس عوضاً عما يعلِّمهم ، زالت بركات علمه ، ولم يطب فى طريق الزهد مطعمه » لطائف الإشارات ذلك « لأن العلماء ورثة الأنبياء فسبيلهم التوقى عن التدنس بالأطماع والأكل بالدِّين ؛ فإنه مضر بالإيمان » .

ويمكن أن نتذكر فى المقابل صورة مناقضة فى عصر القشيرى ، تجلّت فى مصائر الكثيرين من الوعاظ والقصاص والمحدّثين الأدعياء الذين انجرفوا فى احتراف إرضاء العامة ، واستجلاب رضاهم ، واكتساب الشهرة ، والزلفى من السلطان .. إلى غير ذلك من التدنى فى تيارات الطمع .. الذى يدعو إلى الاحتقار .

وفى الحياة العادية لا تفرض عليه النزعة الصوفية اختطاطاً لسبيل يجافى روح الإسلام ، فهو يتزوج ، ويكوّن أسرة ، وينجب الأبناء ، ولكن حينما وقعت به المحنة لم يَحْنِ رأسه للظروف الخاصة بل آثر الاكتواء فى سبيل المبادىء السامية التى يؤمن بها ، واحتمل ما احتمل بثقة الصوفى وأمله فى ربه ، وفى انكشاف البلاء والغمة عن الخير كل الخير .. لأن الله - سبحانه - هو الخير ولا يأتى منه إلا الخير ، ولم يكتف بذلك بل ألّف أشد كتبه جرأة وهو « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة » قاذفاً به فى وجه السلطان ورجال السلطان .. وليكن ما يكون .

هذه الشجاعة فى نظرنا آية صوفيته الرائعة : لأن التصوف ليس عبارات جوفاء ، تلقى فى الهواء .. إنما هو أساساً سلوك ومنهج ، ولو تحلّى العالم ببعض النزعة الصوفية الصادقة لعاش عصره مرفوع الهامة ، قوى الشكيمة ، نصير الحق ؛

لأنه يمثل ضمير الأمة فى الضراء قبل السراء ! ، فليس الصوفى ممن يحنون الرءوس .

وتسمعه - لذلك - يقول لتلاميذه فى إحدى وصاياه : « إن نبا بك موضعٌ فالسفر لك واجب - وأرض الله واسعة » .

أو يقول : « كانت للرسل أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك قادحاً فى رسالاتهم ، ومن اشتغل بالله فلا كثرة العيال ، ولا تراكم الأشغال يؤثر فى حاله ، ولا يضره ذلك » اللطائف « لأن كل مكان ينبت العزِّ طيِّبُ » .

وربما تأثر القشيرى بتعاليم أهل الملامة أو الملامتية (١) من بعيد . ومن المعروف تاريخياً أنه عاصر الجيل الثانى من أهل هذه المدرسة النيسابورية المولد والمنشأ أمثال تلاميذ أبى حفص الحداد ، وحمدون القصار ، وأبى عمرو اسماعيل بن نجيد السلمى ، ولسنا نقصد أنه أثرَ عنه شىء يوجب الملامة فى الظاهر إخفاء لأسرار الباطن ، بل إنه أخذ عنهم حب الانزواء ، وكراهية الادعاء والتصدر والتعالم .. وكذلك بل كان متواضعاً متخفياً .. أو كما يقولون بلغة العصر : البعد عن الأضواء والشهرة والنجومية !! .

---

(١) الملامتية فرقة من الصوفية آثرت إخفاء حبها لله حتى لو تظاهرت بما يوجب الملامة ، وقد ظهرت فى نيسابور فى النصف الثانى من القرن الثالث .

والقشيرى مشتغل ليله ونهاره بالعلم والتعليم والتأليف والتدريس ، فلا عجب أن يكون منامه امتداداً ليقظته ، وأن تكون رؤاه انعكاساً لحياته الروحية ، بل هو يذهب إلى أن الرؤيا لون من الصفاء والكرامة ، ويحضرنا فى هذا السياق حديثٌ شهىٌ للأستاذ المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى فى تحليله لمنامات ابن الفارض ، حيث يقول : « وليس من شك فى أن الكثير من النفوس الصافية - وبعض النفوس التى ليس أصحابها من الصوفية رؤى وأحلاماً لها قيمتها الروحية ودلالتها على مبلغ ما وصلت إليه هذه النفوس أو تلك من إبعاد عن المادية ، وإمعان فى الروحانية .

.... وقد يتحقق فى اليقظة ما يراه النائم فى المنام تحققاً يكون كلياً فى بعض الأحيان ، أو جزئياً فى بعض الأحيان الأخرى ، فإن كانت الأولى وكان صاحب المنام من الصوفية فهو عندئذ من الأولياء الذين كشف عنهم الحجاب ، وانفتح لهم من علم الغيب كل باب » ابن الفارض ص ٩٤ .

فإذا مضينا نلتمس ذلك فى سيرته ، نروى هنا ما يحكيه عنه السبكى فى طبقاته : « أنه كان قد مرض له ولد ، فشق عليه ، فرأى الحق - سبحانه وتعالى - فى المنام ، فشكا إليه ، فقال له الحق سبحانه : اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه ، ثم

اكتبها فى إناء ، واجعل فيه مشروبا ، واسقِه إياه . ففعل ذلك وعوفى الولد » .

أمَّا فى أحلام اليقظة فتكفى قصة خطابه فى أرض الرسول ﷺ حيث رأى بعين البصيرة والفراسة غريمه وغريم أهل الحق الوزير الكندرى ، وهو يقطع ويمزق .. على نحو ما ذكرنا سابقاً ، وتلك لعمر الحق إحدى كراماته ..

أو هى كما يصفها أهل علم النفس المحدثون نوع من الـ Telepathy أو الرؤية من بعيد ، وأيًّا ما كانت فيه دلالة الصفاء والنقاء . (ولنتذكر قصة سيدنا عمر بن الخطاب وهو فى المدينة ، ينادى على قائد جيشه سارية فى نهاوند أن يلزم الجبل ...) .

ويكبر الشاب ، وتكبر تجربته ، وتنضج آراؤه فى التصوف نضجاً يستحق عليه إعجاب معاصريه وإعجاب لاحقيه ، وتنتشر تصانيفه بين الناس .. وآية ذلك كله أنه يحظى لدى المتحدثين عنه بأوصاف وألقاب وتعليقات لا تمنح إلا للأكابر مثل : رضى الله عنه ، أو نفعنا الله تعالى ببركته ، إنه « زين الإسلام » ، ويصفه السبكى قائلاً « كان فى مجالس التذكير والقعود بين المريدين ، وأسئلتهم عن الوقائع ، وخوضه فى الأجوبة ، وجريان الأحوال العجيبة - فكلها منه وإليه - أجمع

أهل العصر على أنه عديم النظير فيها ، غير مُشَارَكٍ فى أساليب هذا الكلام فى تطبيب القلوب ، وله إشارات لطيفة مستنبطة من الآيات والأخبار من كلام المشايخ والرموز الدقيقة » .

أمّا عبد الغافر الفارسى صاحب تاريخ نيسابور فيقول : « كان لسان عصره وسيد وقته ، وسر الله بين خلقه ، وشيخ المشايخ ، وأستاذ الجماعة ، ومقدم الطائفة ، ومقصود سالكى الطريقة ، وشعار الحقيقة .وعين السعادة ، وحقيقة الملاحة ، لم ير مثل نفسه ، ولا رأى الراءون مثله فى كماله وبراعته ، جمع بين الشريعة والحقيقة ، وشرح أحسن الشروح « أصول الطريقة » النص منقول عن السبكى .

ونحسب أن فى هذا كفايةً لعلو مكانته - رضى الله عنه .

* * *

القشيرى الباحث الصوفى

نستفيد من تقسيم التصوف الذى تعلمناه من شيخنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى ، وهو أنه تخلق وتذوق وتحقق .

ونتحدث عن القشيرى الباحث الصوفى فى سرعة تتناسب مع حجم هذا الكتاب ، أمّا من أراد الاستفاضة فليرجع إلى مطولاتنا عن ذلك .

ويتلخص مذهبه فى (التخلق) بما فى البداية من جهود كسبية (ومن مقامات) يريد بها العبد أن تنصقل إرادته لكى يصبح سالكاً فى الطريق .

ويتلخص مذهبه فى (التذوق) فيما يشتمل عليه من مذاقات الحب ، وأحواله التى تتطور إلى الفناء ، فكأنه بمثابة ثمرة للرياضات السابقة .

ويتلخص مذهبه فى (التحقق) فيما يُفاضُ على العبد من المعارف العليا والكشوفات ، وما قد يمن اللّه به من كرامات .

* * *

أولاً - مذهبه فى التخلق

بداية الطريق تخضع لمبادىء ثابتة ، وتظل هذه الثوابت من أول لحظات الرحلة إلى منتهاها ، وتتلخص فيما يلى :

١ - العقيدة والشريعة ووجوب التمسك بهما :

ومنذ افتتاحية « الرسالة » ينبه القشيرى - فى حملة ضارية لا هوادة فيها - إلى أنه قد يندس فى هذا الطريق بعض المرضى أو الجهلة أو الأدعياء « الذين استخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة ، وعدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات .. ألخ » .

وحتى حين تتقدم بنا الدراسة ، ونصل إلى حال (الفناء) ، نجد القشيرى يلح على حالة اسمها (الفرق الثانى) يُرَدُّ فيها العبد إلى الصحو كى يمارس الشريعة فى مواقيتها المحددة بلا خلل ..

وهكذا تماسك البنيان عند القشيرى بين الشريعة والحقيقة ، فلا تحيف إحداهما على الأخرى ، لأنهما تتكاملان وتتفقان ،

ويعتبر استهانة العبد بأقل شيء في الشريعة علامة على عدم تمام صحة عرفانه ومقاصده « من علامة صحة العارف ألا يقع منه في أحكام الشريعة تقصير في جميع أحواله ، فإن لم تحفظ له أوقاته في أداء ما كلف به وإن كان مغلوباً ، فذلك لنقص في حاله » ، لطائف الإشارات ، ويقول في التحبير : « من تواجد ولم يَرَ مِن تواجدِه زيادةً في دينه ، فينبغي أن يستحي ويتوب » .

ويذهب القشيري في ذلك مذهباً متشدداً حتى إنه يرفض الرخصة « لأن الرخصة في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهذه الطائفة لا شغل لهم سوى القيام بحقه سبحانه ..

فإذا انحطَّ الفقير - يقصد الصوفي - عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة ، فقد فسخ عقده مع الله ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى » .

٢ - النفس عدوٌّ تجب محاربته :

التنفس عنده محل المعلولات أي الصفات الذميمة ، وجهادها هو الجهاد الأكبر - كما نبّه المصطفى صلوات الله عليه - وبمقدار الانتصار في محاربة النفس يكون جلاء (القلب) الذي هو مركز المحمودات ، فالصراع محتدم بين النفس والقلب ، وسنعود إلى تفصيل هذا الموضوع بعد حين .

« أول قدم فى القصد إلى الله الخروج عن النفس ، وقتل النفس يكون بالتبرى عن حولها وقوتها أو شهود شىء منها ، ورد دعاواها إليها ، وتشويش تدبيرها » .

و « المريد مسافر بقلبه ، يرتقى درجة بعد درجة فى طريق ذى منازل ومراحل » اللطائف .

إن إحياء القلب - بعد إماتة النفس - هو أول بند فى هذا الدستور ، إنه إحياء للوحدة المنشودة ، أى ليخلو ويصفو القلب للتوحيد - المطمح البعيد للموحدين العارفين .

أما مَن رام الجمع بين الضدين (النفس والقلب) أى طلبات الدنيا والاستعداد للآخرة ، فقد خاب سعيه ، ولم يرتفع غرضه ، لأنه لا يمكن (أن يكون الشخص الواحد منافقاً ومسلماً ، فالواجب مباينة الأضداد) .

٣ - الحذر الدائم من الارتداد عن الطريق :

عندما يأخذ العبد لقب (المريد) فمعنى ذلك أنه اختار هذا الطريق دون إجبار بل (بإرادته) ، وهو منذ اللحظة الأولى أحس بالجو الجديد الذى صار مناط أمله وقصده ، وعايش القوم الجدد الذين أصبحوا أكثر من أهله ، وتمرس ببعض رياضات البداية ، ولحظ ما فيها من مشاق وتكاليف .. وعلم

من اللحظة الأولى أيضاً أن المشاق ستزداد ، وانقطاعه عن الخلائق واليأس مما فى أيدى الناس .. كل ذلك حتماً سيتم على نحو أكمل ..

يعلم القشيرى كل ذلك ، فيدخل فى الموضوع بعقلية المربِّى المجرِّب ويصارح المريد بكل شىء : « هذه طريقتنا .. وإلا فارجع من حيث أتيت .. ولا تثريب عليك ، أمَّا إذا (أردت) أن تشاركنا فالزمْ ، الزمْ آدابنا وشرائطنا ، وامتثل لتقاليدنا ، واخضع لشيوخنا دون أدنى اعتراض ! »

ويشبِّه القشيرى المترددين فى هذه الفترة بالذين يدخلون الإسلام فى بداية أمرهم ، ثم يرتب على ذلك نتيجة هامة هى أن « المرتد أشد على المسلمين عداوة وكذلك من رجع عن الإرادة إلى حكم العادة » ، (اللطائف) .

ولهذا ينصح قدامى المريدين والسالكين بأن يرعوا الوافدين الجدد بكل الهمة ، ويترفقوا بهم ، وينصحوهم بالصبر « فإن الرفق بأهل البداية إذا لم يكن لهم صرامة عزم ولا صادق جهد هو فى ابتغاء الإصلاح شىء عظيم » ، اللطائف .

ونحن نحمد للقشيرى هذه النظرات الواقعية التى ترى القضية من زواياها المختلفة ، وهو فى ذلك يثبت مدى خبرته بخلجات النفس الإنسانية ، وآفاتها ، والحكمة فى تشخيص أحوالها .

وهكذا يريد هذا المربِّى أن يتأسس بنيان التصوف الشامخ على قواعد سليمة « ومن لم يحكم البنيان من أساسه سقط السقف بجدرانه . ومن أساء الأدب على البساط وجب ردّه إلى الباب » !

٤ - ضرورة التأدب بشيخ :

يعلم القشيرى من واقع حياته الشخصية مدى أثر الشيخ الدقاق فى توجيهه ومعاونته ، فهو هنا حين يضع هذا الشرط ضمن القواعد الأساسية إنما يدرك مدى الصراع الذى يقع فيه المبتدىء حيث تتجاذبه الدنيا والآخرة ، ولا يستطيع على حد تعبير الإمام علىّ كرّم الله وجهه : « الجمع بين شقيقتين » . هنا يأتى الشيخ ليمد له يد العون ، يفهمه حقائق الموقف ، يوضح له الرؤية .

ومهمة الشيخ - كما يرى القشيرى - أن يبادر بنجدة المريد ، وأن ينبهه إلى ما قد يحدث من قصور فى (الشريعة) ، ويهدىء من انبهاره إذا لاح له - قبل أوان النضوج - لائحٌ من (الحقيقة) .

فإذا ضمن الشيخ - هذه هى مهمته الرئيسية - أن تلميذه ومريده سائر على درب الشريعة والحقيقة اطمأن إلى ذلك ، وظل يرعى هذه النبتة حتى تثمر عند الأوان وليس قبل الأوان .

ونعتبر حديث القشيرى فى هذا الموضوع ، أى حقوق المريد وواجباته وحقوق الشيخ وواجباته ، من أجمل الوثائق الصوفية التى تنبنى - وهذا ما يدهشنا - على أسس فى علم التربية ، نقدمه نموذجاً لعبقرية أسلافنا العظام قبل أن يظهر فى الغرب شيء يحمل هذا الاسم .

ونحيل القاريء على الرسالة واللطائف وغيرها من كتب هذا الإمام الجليل - إن أراد المزيد فى هذا الخصوص .

٥ - قضية لبس الصوف :

هذا موضوع شغل الباحثين فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب .. ولهذا نود أن نقف على رأى القشيرى فيه بقدر ما تسمح الظروف .

فليس من شك فى أن الذوق العربى والإسلامى عرف (الصوف) كمقابل للحرير والخز ؛ لبساطة الصوف وخشونته ، فهو أليق باختيار طريق الزهادة ، والاشتقاق اللغوى ساعد على ذلك كما نعلم .

ولكن القشيرى - ورغم تسليمه بذلك - يرى التصوف جوهراً لا مظهراً ، ولهذا فهو يؤثر أن يكون الانتماء إلى (الصفاء) فالصفاء معنىً وجوهر ، وأولى أن يكون العبد عاكفا على

(تصفية) نفسه من كدوراتها فى معركة التخلى والتحلى .

وآية ذلك أنك حينما تهمُّ بقراءة باب « التصوف » فى « الرسالة » ، يدهشُك أن يبدأ الشيخ كلامه هكذا : « الصفاء محمود بكل لسان ، وضده الكدرة وهى مذمومة .. » ثم يستمر فى الاستشهاد بنصوص تتردد فيها لفظة الصفاء ومشتقاتها إلى أن يقول : « الصوفى لا يكدِّره شىء ويصفو به كل شىء » .

وقد فطن شارحه الشيخ زكريا الأنصارى إلى مرامى الشيخ ، فأخذ بدوره يتحدث عن (الصفاء) الرسالة ص ١٣٨ وهامشها .

٦ - التخلق بأخلاق الفتيان :

(راجع القشيرى المحدث آنفاً) وستجد الفتوة عند القشيرى مجمع العديد من الفضائل ، أهمها فى نظره الإيثار والتضحية والبذل ، ولنستمع مثلاً إلى هذه الأقوال : « أفضل الأعمال ما كانت بركاته متعديةً من صاحبه إلى غيره ، والفتوة أن يكون سعيك لغيرك ؛ ففى الخبر : « شر الناس من أكل وحده » ، اللطائف .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ يقول : « وأما أهل الفتوة فليس لهم مال حتى تتوجه عليهم مطالبته ؛ لأنهم أهل إيثار لكل ما يُفتح لهم » .

« إذا استصغرت قَدْر الدنيا جُدْتَ بها على كل أحد ؛ فإن الله تعالى يحب كل جواد » .

ويتفرع عن هذه المبادىء الرائعة تعاليم بسطها القشيرى ، مدعمّة بأسانيد عن شيوخ الطريق مثل : العفو عن عثرات الإخوان ، وألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك ، وأن تترك ما تهوى إلى ما تخشى ، وأن تكف الأذى وتبذل الندى ، وألا تدّخر أو تعتذر - أى لا تمنع طالباً من تحقيق مطلبه ، وأن تظهر النعمة وتستر المحنة ، وألا تربح على صديقك .. ألخ .

سيل من (الأخلاقيات) السامية يقوم التصوف فعلاً وقولاً على أنه (علم الأخلاق) الإسلامى الصميم ، ولو أننا راعينا بعضاً منها فى علاقاتنا الحياتية لاجتزنا كثيراً من مشاكلنا ، وحققنا معظم مراداتنا ، وكنا أكثر سعادة وهناءة .

٧ - الخُلوة :

يتفق القشيرى فى معناها مع معظم كتّاب التصوف ، ونقصد به المعنى الحرفى للكلمة .

ولكنه يزيد خطوة عن ذلك .. فينبه إلى جوهرها الأصيل ، وهو أن يكون بمنأىً عن التدخلات الداخلية والخارجية « فربما تكون بين الناس تلبس ما يلبسون ، وتأكل ما يأكلون ولكنك

منفرد عنهم بالسر » وفى موضع آخر يقول : « العزلة فى الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة ، لا بالتنائى عن الأوطان ، فيكون العبد كائناً بائناً ، أى كائناً مع الخَلْق بائناً عنهم بالسر » .

ويشعر العبد فى خلوته شعوراً عميقاً بسيطرة القوة الربانية وتركيز خضوعه لها دون تشويش « حتى إنه ليستحى أن يمد رِجْليه ، وهو فى خلوته ، فذلك حفظ للأدب مع الله تعالى » التحبير فى التذكير ص١٢ .

ويغتنم فى « لطائفه » فرصة تفسير « اخلع نعليك » فيقول: « أى أقم عندنا - يا موسى - هذه الليلة ولا تبرح ، وفرّغ قلبك من ذكر الدارين ، فأنت على بساط حضرة ملك الملوك ، فتجردْ لنا بنعت الانفراد » .

وقد يقال : لماذا نهتم بموضوع الخلوة ؟

والجواب أننا نرى متأثرين بأبى حامد الغزالى « أن خلوة الرسول ﷺ فى غار حراء كانت أول أحواله الشريفة ؛ كان يخلو فى الغار بربه ، ويتعبد حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » المنقذ من الضلال ط . صبيح ص ٢٩ .

وتهمنا ملاحظةٌ يهتم بها بالقطع مؤرخو العلوم الصوفية ؛ فإن ألفاظ : الزوايا والأربطة والخانقاوات ، وردت فى

تضاعيف كتبه مما يقطع بأنها عُرفت فى عهده ، ولهذه الكلمات معانيها الآن فى عصرنا فى خصوص الخلوة الصوفية .

٨ - السماع :

يهمنا أن نعرف رأى القشيرى فى موضوع صوفى ، أثار الكثير من الاتفاق والكثير من الاختلاف : ذلكم هو السماع . نحاول أن نتعرف رأيه فى شرائطه وآدابه ، وعن الحركة أو السكون عند السماع ، وعن تأثير القوالين - أى المنشدين - فى حلِق الذكر .

بادئ ذى بدء فإن القشيرى فيما نلاحظه كان أقل اهتماماً بهذا الموضوع إذا قارناه بغيره مثل السَّراج مثلاً .

فبينما لم يزد اهتمامه به عن باب مستقل من أبواب «الرسالة» وبضعة آراء متناثرة فى لطائفه وتحبيره ، نجد السراج قد أفرد فى « اللُّمَع » أكثر من خمسين صفحة لهذا الموضوع وحده ، بل لخص من أجله كتاب « الوجد » لأبى سعيد بن الأعرابى .

وخلاصة رأى القشيرى أن السماع انتباه إلى معنى أو معان ، يفطن إليها قلب الصوفى ، فتحدث فيه نشاطاً نفسياً وعضوياً ، فتوقظ حبه الدفين لمولاه ، فإمَّا أن يتواجد ؛ أى تصدر منه

بعض الحركات أو الأصوات . وإما أن يهدأ ويسكن ولا يصدر عنه شئ ، ولكن القلب يبقى مزدحماً ومتفاعلاً من الداخل ، ويذهب فى التأمل والاعتبار ، وقد تنزل دموع ، وقد تصدر همهمة ، وقد ... وقد يُصعق المرء ! وأراحنا القشيرى حين وضع معياراً يضبط الأمر « من أصغى بحق تحقق ، ومن أصغى بحظ تزندق » ، ومعنى العبارة أن ملاك الأمر كله الصدق ، وأنّى للمرء أن يكذب على الرب ؟!

وإذاً فقد حوصرت المشكلة .. وأصبحتَ فى هذا النفر من الأدعياء الذين تخلو نيتهم من الصدق ، فيتحركون للتظاهر .. هؤلاء منافقون والطريقة منهم براء .

أمّا إذا كان القلب مملوءً بالصدق ، واستدعى الأمر الحركة فلا بأس ، واستدعى الصراخ فلا بأس ، واستدعى حتى تمزيق الثوب فلا بأس ، المهم .. الصدق ، الصدق !!

هذا ولم يكن القشيرى مستريحاً دائماً إلى الاحتراف .. احتراف التحريك والتهييج (راجع مثلاً قصته عن علىّ القوّال ص ١١٥ بالرسالة وص ١٧٢ نفس المرجع ، فقد يدخل فى الحرفة أناس غير معروفين للجموع ، فيكون منهم تصرفات تسئ إلى الطريقة وأهلها) .

* * *

مقامات الطريق

المقام هو هذا الجهد الكسبى الذى يبذله العبد عندما يختار الطريق .. طريق الرحلة إلى اللّه سبحانه ، تمييزاً له عن (الحال) التى هى فيض من اللّه عليه ، بمعنى أنه إذا كانت المقامَات كسبيه فالأحوال وهبية ، المقامات جهود ، والأحوال من عين الجود .

وهى عند القشيرى : التوبة والورع والزهد والصبر والتوكل والرضا .. وهذه المقامات قد تزيد وقد تنقص عند بعض الباحثين غير القشيرى ، وقد حاول بعض المستشرقين الذين أرادوا إرجاع التصوف الإسلامى إلى مصادر أجنبية من خارج البيئة الإسلامية أن يجعلها سبعة ، وأن يبنى على ذلك حكما تعسفيا ، أنها مأخوذة عن العقبات السبع فى المجوسية !!! وهذا ظلم للحقيقة ما بعده ظلم !

ولست أريد أن أغرق القارىء هنا فى بيان معانى هذه المقامات ، فالكتب المتحدثة فى ذلك كثيرة ، ومن السهل الرجوع إليها ، فضلاً عن أن اختصارها هنا سيخل بالموضوع إخلالاً شديداً ، لهذا أكتفى – بالنسبة للقشيرى – ببعض الملاحظات السريعة .

فهو أولاً حريص أشد الحرص على أن يربط بين أى أصل لهذه المقامات وبين القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لا من حيث ورود اللفظة صريحة فيهما بل بما تحمله من معانٍ تربوية لها قيمة عظمى فى الحياة الروحية .

وهو يميل إلى التقسيمات الثلاثية لكى يبين البداية والوسط والنهاية فى أى نشاط أو جهد ، والأمثلة على ذلك لا تحصى ، فهو يفرِّق – مثلا – بين تاب ، وأناب ، وآب ، أى بين التوبة والإنابة ، والأوبة ، ويستشهد على ما يقول من المصادر الإسلامية الأولى كدأبه دائماً .

وهو يجيد استعمال حروف الجر للدلالة على التفرقة بين المعانى ، فهناك فرق كبير بين كل من (الصبر) مع الله وعن الله وفى الله ولله وبالله ... ألخ .

وهو يجيد التغلغل فى أعماق النفس ليعطيك اللفظة الملائمة للموقف .. وهنا يقف اللغوى موقف السعادة ؛ إذ يشهد إضافات للمعانى القاموسية المألوفة ، يجود بها التصوف على اللغة ، فهناك فرق دقيق بين كل من : التوكل والاستعانة والتفويض والإذعان والتسليم والاستسلام .

وهناك فرق دقيق بين الذكر والفكر ، وقل نفس الشىء فى كشف عيوب هذه النفس فى أعمق أعماقها ، والفرق بين العلة

والأخرى ، ثم ما دواء كل علة على حدة – ثروة هائلة يمتزج فيهاعلم النفس بعلم الأخلاق باللغة ، بحيث يزداد إعجابك بالتصوف ، وكيف أنه رافدغنى يرتبط بالمعارف ويربطها ، وهذا لعمر الحق ، فضل اشترك فيه باحثوا التصوف عموماً حتى ليصبح كأنه أحد طباعهم الخاصة جداً .

وإذا كان القشيرى – كغيره – قد جعل (الرضا) آخر المقامات إلا أنه أضاف رأياً له وجاهته ، فهو قد يعتبر الرضا مقاماً على أساس أن القناعة (جهد) يمارسه الإنسان ، ثم ينظر إليه على أنه (حال) على أساس أن الرضا منّة إلهية ، ولن ترضى إلا إذا رضى سبحانه عنك ، والواقع أن القشيرى مستجيب للبيئة فى هذا الخلاف « فالخراسانيون يعدونه من جملة المقامات أى هو نهاية التوكل » أما العراقيون « فإنهم قالوا إن الرضا من جملة الأحوال ، وليس فيه كسب للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال » الرسالة ص ٩٧ .

وهنا يبرز دور القشيرى فى التوفيق بين الاتجاهين حيث يقول : « ويمكن الجمع بين اللسانين ؛ فبداية الرضا مكتسبة للعبد ، وهى من المقامات ، ونهاية الرضا من الأحوال ، وليست مكتسبة » الرسالة ص ٩٨ .

* * *

ثانياً – مذهبه فى التذوق

إنه لشىء لافت للنظر أن يصدر عن القشيرى مصطلح فى هذا الباب ، ربما ينظر إليه بعض الناس نظرة لا تخلو من القلق .

نعم .. حين يتقدم رجل من أوساط أهل السنة مشهود له بالرصانة والوقار ، فنسمع منه هذه النصوص :

« من جملة ما يجرى فى أقوال الصوفية الذوق والشرب ، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلى ، ونتائج الكشوفات ، وبوادر الواردات ، وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الرِّى ، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى ، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ، ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الرى .. »

ويمضى القشيرى موضحاً تدرج هذه الأطوار : « فصاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرى صاح » الرسالة ص ٤٢ .

هذه الألفاظ الجريئة تخدم المعنى المراد تماماً [١] ، بل هى

---

(١) واضح أن حديث الشرب والسكر عند الصوفية ينصرف إلى (الخمر) الشفيفة البعيدة كل البعد عن الخمر البشرية الكثيفة ، وربما كان ورود هذه المعانى فى القرآن الكريم عن (خمر الآخرة) مشجعاً لهم على هذا التعبير .

ذات صيغة لغوية معبرة بدقة ، فصيغة (متساكر) أى متفاعل فيها تكلف وفيها تقطع ، بينما صيغة (سكران) فعلان فيها ملازمة واستدامة .

أما صاحب الرى فصاح « لأن من قوى حبه تسرمد شربه فإذا دامت به تلك الصفة « لم يورثه الشرب سكراً » ، فكان صاحياً » .

* * *

والذى يهمنا أن أذواق الحب والفناء ومواجيدهما هى مناط هذا الباب ، ولا توجد فواصل حادة بين الاثنين ، لأنهما مستمران ومتواصلان ، ولابن الفارض تعبير جميل فى هذا حيث يقول : « فلم تَهْوَنى ما لم تكن فىَّ فانياً » .

أما الفصل القادم والأخير فسنخصصه (للتحقق) ، على أساس أن المعرفة ، أو بعبارة أدق العرفان ، هى قمة الرحلة وغايتها .

* * *

الحب والفناء وأحوالهما

تابع القشيرى مادة (الحب) فى الرسالة وفى اللطائف متابعة جادة ، والذى يهمنا أن نقدم خلاصة لموقفه ؛ إنه يؤمن أن هناك حُبَّيْن ؛ حب عام بمعنى الطاعة والتدين واتباع الأوامر واجتناب النواهى ... وهذا مطلوبٌ من كل مسلم ينتمى إلى الإسلام ، ويخلص فى اتباع سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام .

وحب خاص .. وهذا هو الذى يعتينا ، لأنه المقصود بالحب الصوفى « إنه نوع من الإنعام يخص الله به خواص المؤمنين بالقربة والأحوال العلية » (الرسالة باب المحبة) .

والقشيرى وشيخه الدقاق لا يطلقان عليه لفظ (العشق) ، وهذا شىء مشكور لأن المعتزلة والظاهرية (ينزهون الله عن العشق لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، ومن الناحية العملية على الملامسة والحلول) ، دائرة المعارف الإسلامية مادة تصوف ، وبهذا جنّبا التصوف كل مظنة تأتى من طرف أعدائه .

وقبل أن نخوض فى دراسة هذا الموضوع علينا أن نتوقف

بعض الوقفات ذات الأثر الهام فى الفهم المدْرِك - مع مراعاة ما كررناه دائماً ، أننا هنا بعيدون عن التفاصيل والتفاريع ، بل نعمل فى حدود هذا الكتيب الصغير الحجم ؟ .

أولاً : لماذا كانت أحوال الحب والفناء هى (أزواج) من الثنائيات كثيرة كثيرة إذا قيست - نسبيا - بالمقامات التى هى فرادى ، وهى محدودة العدد - كما ذكرنا .

السبب الأساسى أن الأحوال منن إلهية ، وليست كالمقامات كسْبية ، فالقلب هنا بين إصبعين من أصابع الرحمن يربيه ويصقله تربية إلهية وصقلاً إلهياً ، فهو يعطيه بمقدار ما يستحق ، ويمنع عنه بمقدار ما لا يستحق .. (يبسطه) حتى يرى ما يحدث منه وله فى حال (البسط) ، ثم (يقبضه) لأنه يستحق ذلك فى (الوقت) المناسب ، أو خير له فى (الوقت) المناسب ، فالصوفى المحب يكون بحسب (حال الوقت) ، الصوفى ابن وقته ، أى ليس له أن يتجاوز الحد الذى أوقف عنده قيد شعرة .

عليه أن يلزم آداب (الوقت) وإلا عوقب بالطرد من على (البساط) إلى (الباب) - على حد تعبير القشيرى .

الشىء الثانى أن للقشيرى تصوراً للملكات الروحانية ، يتدرج من البداية صعوداً إلى القمة ، وكل ملكة لها وظيفة ،

وتلحقها آفة ، ولكل آفة علاج .. هذا موضوع هام جداً كى نفهم القشيرى حق الفهم ، وكى تصبح عباراته قريبة المنال ، ولهذا نشعر الآن بضرورة توضيحه ؛ لأنه يهمنا الآن وفيما بعد ، ولنتصور مثلاً خط البداية :

هنا يبدأ (المبتدىء) رحلته .

على هذا الخط يوجد على اليمين (النفس) ، وعلى اليسار (العقل) ، النفس مركز المعلولات كما قلنا ، على العبد أن يبذل كل الجهود والرياضات والمجاهدات والمكابدات والمقامات كى يصلح من هذه النفس ، والأفضل أن يحاربها حتى يقتلها ، وبدلاً من أن تكون (الأمارة بالسوء) تصبح (الراضية المرضية) أو (المطمئنة) .

هذا عظيم .. تلك هى بداية الاختيار و (الإرادة) ، وعلى (المريد) أن يأخذ من علوم (العقل) ما وسعه ، وأن يبذل كل طاقته فى (تكريس الإيمان) .. لأن العقل فيما بعد لن يكون له دور فى المعرفة ، إذ أن التصاعد إلى القمم يبتعد بنا عن المحسوس ، ومن المعروف العلاقة بين الحس والعقل معنى أن نبتعد عن العقل أن أنواراً أكثر تدفقاً ستتتالى ، فيكون وجود العقل أشبه بوجود الشمعة ، حيث يوجد المصباح بل إن ضوء المصباح مرة أخرى سيكون بلا معنى ، حيث

يكون (البدر) ثم إن البدر نفسه لا قيمة لضوئه حين تطلع الشمس ، فما بالك حين تظهر (شمس الشموس) ! ؟ !

وبعد الانتهاء من معركة النفس ومن استيفاءات العقل يأتى دور (القلب) ليرث الاثنين ، فهو من ناحية قد ورث النفس باعتباره مركز المحمودات والخواطر الطيبة والسلامة الصافية والنقاء من الكدورة ، وهو من ناحية أخرى وريث العقل فى استشفاف المعارف العليا التى ستنهال وتنثال .

ها نحن الآن أمام هذه الملكة العظيمة (القلب) ، ووريث النفس ووريث العقل ، ومناط الأمل فى بقية الرحلة .

يرتقى بنا القشيرى مرحلة بعد القلب ، هى مرحلة (الروح) ، الروح عنده هي محل المحبة ، وهى منظورة على حب الله منذ يوم العهد أو يوم الميثاق .. ذلك اليوم الذى (ذَرَّ) فيه الأرواح قبل أن تلج إلى الأجساد ، فأخذ عليها العهد بالإيمان به وبحبه « ألست بربكم » ؟ قالوا : بلى .

هكذا أمر جميع الأرواح ، وإنما حصل الاختلاف بينها من كفران أو شكران بعد دخولها إلى الأجساد .

ثم يأتى (السر) بعد (الروح) .. وإلى هنا ولا يكاد تصور القشيرى يختلف كثيراً عن بقية الباحثين الكبار فى هذا الموضوع ، إلا إنه بعد ذلك يزيد ملكة أخيرة هى (سر السر) ،

وهو عنده وديعة ربانية ، أودعها اللّه أمانة عند عبده المحب ، كى يشهد بها الأنوار العليا ، وهى عين صافية لا آفة لها ولا شائبة فيها ، لأنها كما قلنا وديعة إلهية !

نحن إذاً أمام : النفس والعقل .

القلب

الروح

السر

سر السر أو (عين السر)

اقرأ ما شئت الآن من نصوص للقشيرى ، تجد نفسك على بصر وبصيرة بمرادات الشيخ دون إعنات أو مشقة ، مثلاً (نفوسهم محَالُّ لعبادتنا) (أى المراحل الأولى للتعبد والتصفية) ، وقلوبهم منازل لمعارفنا (لاحظ كيف ورث القلب العقل فى المعرفة) ، وأرواحهم مواضع لمحبتنا ، (تذكر يوم الذر والتعاهد مع الأرواح على الإيمان والحب) ، (وأسرارهم معاهد لمشاهدتنا) . واستمع أيضاً دون تدخل منا بالشرح بعد ما سبق من إيضاح : (نفس العابد ينبغى أن تكون مقرٌ الطاعة ، وخرابها الشهوة ، وقلب العارف ينبغى أن يكون قرار المعرفة ، وخرابها الغفلة ، وروح الواجد ينبغى أن تكون قرار المحبة وخرابها الحجبة ، وسر الموحدين

ينبغى أن يكون قرار المشاهدة وخرابها الحجبة والوحشة) .

وعلاج ذلك فى كلمة واحدة هى عنده (التطهير) .. استمع : (تطهير النفس يكون عن عبادة غير اللّه ، وتطهير القلب عن تعظيم غير اللّه ، وتطهير الروح عن محبة غير اللّه، وتطهير السر عن مشاهدة غير اللّه) .

والآن أصبح واضحاً أن الرحلة الصوفية فى صميمها ، قصة كاملة بالمعنى الحرفى للكلمة .

فهنا .. الروح حينما كانت طليقة من الجسد أحبت ربها ، ثم حينما دخلت هذا القفص الترابى الذى هو الجسد حدث الخلل والاضطراب ، وحدث (الصراع) بين نزعة الشر الكامنة فى النفس ونزعة الخير المشرئبة فى القلب ..

فبمقدار ما هنالك تيار دنيوى يأخذ بتلابيب المرء نحو الأمور الدنيَّة ، يكون هناك (اشتياق) للروح ، لتعود إلى الآفاق العليَّة ، أى من حيث جاءت ، ومن حيث صدرت ، ومن حيث عهدت ، وتعاهدت مع مولاها على حبه والعودة إليه !!

هذا هو الموضوع فى بساطة شديدة ، وهذا هو سر الروعة الرائعة والدفء والصدق الذى تلمحه فى الشعر الصوفى عبر العصور ، عند العرب والفرس والترك وغيرهم ، كان التصوف قصة حب رائع بمقدار ما فيه من إخلاص وتدفق وصدق ، ويُعد

عن التزييف .. ومن هنا يستحق الشعر الصوفى احترام الناس وإجلالهم ، فليس فى الغزليات أو الخمريات الصوفية كلمة واحدة مزيفة أو مشبوهة أو مقصود بها بشر .. كله كله للّه وفى اللّه ، وباللّه .

وهذا هو الذى يحفزنا دائماً على حث الناشئة على الاستزادة من معالى الشعر والنثر الصوفيين ؛ ففيهما كنوز أدبية وفنية ومعرفية لا تكاد تتناهى .. وسنعود لنمس هذا الموضوع مرة أخرى .

* * *

فإذا اقتربنا من هذا الحب المخصوص عند القشيرى ، وحاولنا أن نستخلص سماته ، وجدناه يمتاز :

١ - بالصفاء من المطمع

٢ - وبالصدق

٣ - وبالتجرد من كل السوى

وبهذه المعانى يقترب قلب المحب من شىء هام جداً ، هو (التوحيد) ، فإذا كان التوحيد فى التدين التقليدى عبارة تقال ، فهو هنا حالة تطبيقية .. حيث تسقط كل الإرادات إلا إرادة اللّه ، وتسقط كل الياءات (أى الملكيات) إلا للّه ،

فالمريد على حقيقة من سقطت كل إراداته فى إرادة المولى .

وعلى هذا فالتوحيد هنا أن يفنى الموحِّد فى الموحَّد ، فلا يكون إلا واحد .

وبهذا الفهم يلتقى التصوف مع الدين فى أعظم جواهره ، وهو (التوحيد) ، وبهذا يمكن القول على الفور إن الشريعة والحقيقة وجهان لحقيقة (واحدة) ، وبذا يكون القشيرى قد سخَّر تصوفه لتنزيه الله ، وفرض على كل مجترىء على التصوف أن يلزم حدود الأدب فـ (التوحيد قالة .. وتوحيد الكائنات دلالة ، أما توحيد أهل الصفوة فهو توحيد الحالة) اللطائف .

والحب الكبير يقاس بعنصر المأساة فيه ، وهذا الحب الصوفى فيه ما فيه من المشقات والابتلاءات ، وكل (وقت) فيه مسخَّر للوصول ، ومن هنا عرفوا قيمة هذه اللفظة (الوقت) .

يقول الدقاق شيخ القشيرى (الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك ، يعنى لو محاك وأفناك لتخلصت حين فنيت ، ولكنه يأخذ منك ، ولا يمحوك بالكلية) الرسالة ص ٣٤ .

أما أحوال الحب والفناء فهى بدون شرح (يمكن الرجوع إلى الرسالة) تبدأ بالخوف والرجاء ، ثم بالقبض والبسط ، فالهيبة والأنس ، ثم التواجد والوجد والوجود .

ثم طائفة أخرى : الجمع والفرق ، الغيبة والحضور ، المحو والإثبات ، القرب والبعد ، السكر والصحو ... ألخ .

وبينما هى عند القشيرى يمكن حصرها مهما ازدادت عدداً إلا أنها عند باحث آخر كأبى عبد الله الأنصارى الهروى تبلغ عدد أنفاس الخلق أى لا يمكن حصرها اعتماداً على أن أفعال الله فى عباده ، ومننه عليهم لا حصر لها .

والقشيرى مشكور أعظم الشكر حينما يصف العبد مهما أوغل فى (الفناء) بأنه لا حلول ولا اتحاد ولا امتزاج ولا أية شائبة من شوائب دخول العبودية فى الربوبية (فقد جلّت الصمدية عن أن تكون مورداً للبشر) .

بل إنه يستحق إعجابنا حينما يفسر الفناء تفسيراً سلوكياً : (الفناء سقوط الأوصاف الذميمة ، والبقاء يكون بالأوصاف الحميدة) .

ويزداد إعجابنا أكثر ، حينما يُلح أن يعود (الفانى) إلى وعيه فى حال (عزيزة هى الفرق الثانى تمييزاً لها عن الفرق

الأول) كى يؤدى العبادات فى مواقيتها ، وكى لا يكون هناك إخلال بالشريعة (الرسالة . ص ٣٩) .

أما ما يحدث من (الشطح) ، فيقارن بينه وبين مجنون بنى عامر (كان إذا نظر إلى الوحش يقول : ليلى ، و إلى الجبال يقول : ليلى ، إلى الناس يقول : ليلى ، حتى قيل له : ما اسمك وما حالك ؟ يقول : ليلى) أى أنها كلمات صادرة عن عبد واله لا يملك لنفسه فى نفسه شيئاً ، فإذا صحَّ ذلك فى حب مخلوق لمخلوقة فما بالك بحب العبد للرب ؟!

* * *

ثالثاً - مذهبه فى التحقق

التحقق فى أبسط تعريف له هو حصول المعارف للعبد الذى اختار هذا الطريق مبتدئاً فمريداً فسالكاً .. ولكى أميِّز القشيرى عن غيره - أو ربما أتفق مع قليلين - أن قمة حال العارف بالله هى (التوحيد) فالتحقق هو حصول التوحيد الذوقى الشهودى .

فإذا كانت الحقيقة تنتهى بالتوحيد .. توحيد الحالة .

وإذا كانت الشريعة جوهرها التوحيد .. توحيد القالة .

فما أبدع أن يلتقيا هنا ، لأنه إذا كانت الشريعة للكافة وكانت الحقيقة للخاصة إلا أن الكافة والخاصة فى كنف الرب لا خلاف بينهما ، ولا تناقض ، ولهذا يقول شيخنا (كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول . الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن (المعارف) به سبحانه وتعالى وجبت بأمره) الرسالة : ص - ٤ .

أظن أنه ليس هناك كلام أوضح من هذا ، فلتنخرس ألسنة المتربصين بالتصوف فى كل العصور ، ولتعلم أن البداية والتوسط والنهاية لكليهما - الشريعة والحقيقة - كلها منسجمة ومتلاقية مهما أوغل الفانى فى فنائه أو المشاهد فى شهوده .. أو حتى الشاطح الصادق فى شطحه الصادق !

فالسرّاج فى « اللمع » يدرك أن بعض الناس تأخذ على القوم (شطحهم) أى خروج بعض الألفاظ أو العبارات إبّان غلبة الشهود .. فيعرّف « الشطح بأنه كلام ظاهره قد يبدو مستشنعاً ولكن باطنه سليم » ويعلله بأنه « كما يزيد الماء في النهر فيشطح على جانبيه ، كذلك يزيد الحب فى قلب العبد فيعجز عن كتمانه ، ويفصح عنه .. » .

ونضيف إلى هذا رأينا .. وهو أن اللغة لم تضع فى حسابها مثل هذا الموقف ، فاللغة في الأصل وسيلة (اجتماعية) يتخاطب بها الناس ، فيفهمون عن بعضهم بواسطتها .. أما هنا فالموقف فريد .. فنحن بإزاء عبد يشاهد الأنوار الإلهية ، أى هنا العبد والرب .

فهنا مناجاة من نوع معين ، وليس أمام المشاهد - الذى هو بشر - إلا (اللسان) و (اللغة) التى ألفها الناس ، فهو يأخذ منها ما يصف به الموقف الذي هو عليه فى (الوقت) .

.. وهنا يحدث الالتباس .. يأتى من لا يعرفون ولا يذوقون فيعذلون ولا يعذرون ، ويلومون لأنهم فى النهاية لا يفقهون ، ولهذا ... فالذى يقترب من (المعارف) الحاصلة فى (التحقق) ثمرات للمشاهدات .. يجب ألا يخوض فيها كل من هب ودب ، وقد فطن كبار الشيوخ فنبهوا إلى ذلك .

هنا خصوصية فى اللغة وخصوصية فى الموقف وخصوصية فى الكشف .. هنا عبدٌ وصل ثم اتصل ، هنا عبدٌ يظل فى التلوين حتى يصل إلى التمكين ، إنه يرقى إلى أن يكون محواً بمعنى أنه لا إرادة له فى نفسه بل كل الإرادة فيه لله ، إنه أصبح صورة لفضل من أفضال الله .. إنه موحِّد وعارف بالله ، إنه ولىٌّ .. ! إنه فى قمة القمم .. حيث لا مكان ولا زمان !

* * *

المشاهدة

فى التفسير الإشارى للإمام القشيرى يوضح كيف أن تباشير الكشف لا تلوح للعبد فجأة ، وهذا سبب ما حدث لموسى عليه السلام ، عندما ألح فى طلب الرؤية وقيل له : لن ترانى .. فماذا كانت النتيجة ؟ يجيب القشيرى : صعق موسى ، واندك الجبل ، ولم يستقر مكانه ، وكان ذلك بسبب طلبه الرؤية « حين

لاحت له تباشير الجمال والجلال » هذه هى الإشارة كما يلتقطها وجدان هذا الشيخ .

وقد أحسن الصوفية - والقشيرى منهم - فى الاستعانة بمظاهر الطبيعة لتقريب إيصال المفهوم من (التدرج) النورانى لا الطفرة . فهى (لوائح ثم لوامع ثم طوالع) وأضاف القشيرى (ثم شوارق ثم متوع النهار) .

والوقفة اللغوية عند كل لفظة تعطى دلالة مباينة ، سواء فى مقدار النور أو مدة مكثه ، والقشيرى مشكور حينما أعطى اهتماماً لهذا الجانب اللغوى حتى يفيد تلاميذه وقُرّاءه .

بل هو مشكور أيضاً حينما أضاف إلى ذلك البعد النفسى بمعنى وصف حال (المشاهد) حين تلقى واحدة من هذه الدرجات ، ثم الانتقال إلى ما هو أرقى ، وأحياناً تحدث عقوبة فينزل إلى ما هو أدنى !!

ويصل بنا القشيرى فى التوضيح إلى نظرية فى الفهم لهذه المراتب العلية ؛ إذ يتدرج (بالمعرفة من برهانية إلى بيانية إلى عرفانية) ، وسنتحدث بعد قليل عن ذلك ، ولكن لا ننسى أن نذكّر القارىء بأننا هنا فى معراج القشيرى الذى أوضحناه خاصاً بالملكات فى منطقة فوق (الروح) التى هى موضع المحبة ، نحن فى منطقة (السر) أو (عين السر) أو

(سر السر) ، واستمع إلى تفسيره الإشارى عند قوله تعالى : « يعلم السر وأخفى » حيث يقول : (أى لا يطلع عليه إلا الحق ، فهو لا يفسده الشيطان ، ولا يكتبه الملكان ، ويستأثر بعلمه الجبار ، ولا تقف عليه الأغيار) ، لطائف الإشارات .

وثمة ملاحظة على جانب كبير من الأهمية :

فلو أنك قرأت فصلاً مماثلاً عند مؤلف كالأنصارى الهروى لوجدته يقول : « والمعاينة على ثلاث درجات : الأولى معاينة بالأبصار ، والثانية معاينة بالقلب ، والثالثة معاينة عين الروح . وهى التى تعاين الحق عياناً محضاً » ، (منازل السائرين للهروى ص ٢٩) .

إنك غير واجدٍ شيئاً من ذلك عند القشيرى ، فليس عنده مهما أوغل العبد فى الصعود معاينة بالأبصار !!

وتلك تحذيرات جميلة تحمد للقشيرى ، وتُحسب له ، تزيده فى نظرنا احتراماً وتقديراً ، فقد جلّت الصمدية عن أن تستشرف منها حدقة عين بشر !! وهذا يتفق وصورة « المطلق » فى الفلسفة ، إنها مجرد مكاشفات جمالية جلالية ، كما تتجلى صفات الله سبحانه فى الكون فى الشجر والطير والسماء والفضاء والأرض والبحر !

صفات الفعل .. الجمال والجلال ، وليست صفات الذات .. (جلّت الذات عن أن تكون فى وهم واهم) والآن نسمعك هذا النص للقشيرى ونحن مستريحون ومتفاهمون ومتفهمون بعد أن استوعبنا معاً منهج هذا الشيخ الجليل .

« اعلم أنه عز وجل يكاشف القلوب مرة بوصف جلاله ، ومرة بوصف جماله ، فإذا كاشفها بوصف جلاله صارت أحوالها دهشاً فى دهش ، وإذا كاشفها بوصف جماله صارت أحوالها عطشاً فى عطش . فمن كاشفه بوصف جلاله أفناه ، ومن كاشفه بجماله أحياه ، فكشف الجلال يوجب صحواً وغيبة ، وكشف الجمال يوجب صحواً وقربة ، فالعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا ، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا ، فمن غاب فهو مُهيّم ، ومن طاب فهو متيّم » ، (التحبير فى التذكير : ص ٣٩)

* * *

العرفان

أوضحنا فيما سبق أن القشيرى يميز بين نوعين من المعرفة ؛ معرفة فى البداية أساسها خدمة العقل بكل الوسائل المتاحة من أجل تصحيح الإيمان ، وتكريس العقيدة .. هذا مطلب عام ، أو قل فريضة عامة واجبة على كل متدين ، وبغض النظر عن ثقافته . وهذا القدر المتاح تتسع دائرته لمن يقترب من العلم

الدينى فيشمل كل علوم النقل والعقل ، وقد رأينا من سيرة القشيرى كيف أعاده شيخه الدقاق إلى طلب المزيد والمزيد من هذا اللون من المعرفة عند شيوخها ومجالسها .

غير أن هناك نوعاً ثانياً - وهو الذى نقصده هنا ، ويطلق عليه « العرفان » ، وصاحبه العارف بالله ، ولفظة « بالله » فى هذا اللقب مقصودة تماماً ، فهو عارف لا بفضل شخصيته أو ذكائه أو عقله بل « بالله » وانمحاء الشخصية هنا معناه ذوبان إرادة هذا « العارف » فى إرادة مولاه لكى يكون « بالله » .

وتكون الخلاصة فى رأى القشيرى : « أن المعرفة فى الابتداء كسبية وفى الانتهاء وهبية » وبشكل أكثر تفصيلاً وتدقيقاً المعرفة على ثلاث درجات :

١ - عقلية : ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢ - قلبية : ونورها البيان أو عين اليقين .

٣ - كشفية : ونورها (العرفان) أو حق اليقين .

ويوضحها فى موضع آخر فيقول : « نور فى البداية هو نور العقل ، ونور فى الوسائط هو نور العلم ، ونور فى النهاية هو نور العرفان » .

التزم القشيرى بهذا الترتيب العرفانى الثلاثى التزاماً جاداً ، وأخلص له فى كل مباحثه وتصانيفه .

ولن نبخل على القارىء بوقفة أكثر تمهلاً عن « العرفان » كى نزيده إيضاحاً ، وهو حقاً جدير بكلٍ هذا الاهتمام ؛ لأننا الآن فى منطقة قمة القمم ، وقد بذلت كل الجهود المضنية فيما سبق لأجل تحقيق هذا الطموح المجيد

السر وعين السر هما موضع العرفان عند شيخنا ، وهما عنده بعيدان عن آفات النفس والعقل كل البعد ، ولهذا فإن طبيعة العرفان تختلف اختلافاً هاماً عن المعرفة العقلية ؛ فأرباب العقول يستدلون بوجود المخلوق على الخالق ، وبالمصنوع على الصانع ، وبالمحدث على القديم ، وبالنسبى على المطلق . أما أرباب العرفان فالله عندهم حاضر ومشهود ، فهو لا يغيب - كما يعبِّر ابن عطاء الله السكندرى - حتى يُستدل عليه ، وهو سابق لا مسبوق - فبه يعرفونه أو كما يقول ذو النون : « عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى » وليتذكر القارىء الكريم ما قلناه منذ برهة عن (العارف بالله) .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى أحد شيوخ الرسالة : « اللهم إنى أتقرب إليك ، وبك أدل عليك » .

ويقول أبو يزيد البسطامى « إنى لا أفهم عنك إلا بك » .

وينتهز القشيرى فى تآليفه كل فرصة لكى يوضح ما يصيب المعرفة العقلية - التى يزهو بها أهلها - من آفات .

يقول عن العرفان فى اللطائف : « ليس فيه ما فى المعرفة العقلية من التجويز والتردد والتحير ، فكل ذلك منتفى عن قلوبهم ، فشموس العرفان طالعة على (أسرارهم) ، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم ، فلا لهم تعب الطلب ولا عليهم سلطان الفكر ، وشعاع شموس العرفان مستغرق لأنوار نجوم العلم » .

* * *

أوصاف العارفين

هذه الحياة الروحية الزاخرة من بدايتها ووسطها ونهايتها بكل ما ينعش الضمير والقلب والوجدان لا بد أن تنعكس على صاحبها ، فتنمو وتزدهر فى أعماقه سعادة لا تعادلها سعادة ، وهذه السعادة بدورها تظهر باديةً عليه فى سلوكه ، فهو مع الناس ومع الله ومع نفسه يمتاز بصبغة خاصة ، صبغة الله ، وهل أحسن من الله صبغة ؟!

وهنا يُطل التصوف برأسه ليقول للناس : أىُّ علم من علومكم يمكن أن يتغلغل فى أعماق صاحبه على هذا النحو الأخاذ الذى يحدث لَدىّ ؟ !

وقد أحسن الشيخ الرئيس أبو على بن سينا حينما خص هذا الموضوع فى آخر « الإشارات والتنبيهات » باهتمام خاص ، إذ جمع فى صعيد واحد مجموعات هائلة من أوصاف العارفين .

ولهذا حَقٌ علينا أن نتقصى هذا الموضوع عند القشيرى ، لنتعرّف رأيه فيه ، وهو مُنْبَثٌ فى تضاعيف مؤلفاته .

يقول القشيرى فى تحبيره : « ومن أوصاف العارف ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، فيكون بالحق ناطقاً ، وبحق الله قائماً ، وفى دين الله قوياً ، لأنه المعرفة تقتضى استصغار الأقدار سوى قدره ، ومحو الأذكار سوى ذكره ، فإن نطق نطق بالله وإن سكت سكت بالله ، وهو يحتمل الأذى بطيب نفس من كل الخلق » .

ويقول فى نفس الكتاب : « من عرف أنه تعالى المتفرد بالملك أَنِفَ أن يذل لمخلوق ؛ لأن المعرفة بحقيقة ملكه توجب التجرد له فى التقرب إليه ، وتوجيه القصد نحوه فقط » و « العارف يثق بما عند الله ، فلا يتوقف عن الإنفاق والبذل لتحققه أن الخلق من الله سبحانه - معجّل ، وجميل العُقبى مؤجّل » و« العارف قلبه سليم خالص من الغِلّ والغش والحقد والحسد ، لا يُضمر لأحد من المسلمين إلا كل صفاء وخلوص وصدق ونصح ، فيحسن الظن بكافتهم ويسىء الظن بنفسه »

و« العارف حسن الانتظار للطف الله ، دائم الترقب لمحصول فضله - مستديم التطلع لنيل كرمه ، تارك للاستعجال ، ساكن تحت جريان الحكم » .

* * *

الولاية

عندما فَسَّر القشيرى قوله تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء ﴾ (١٥ سورة غافر) قال : « وهذه الروح هى روح الرسالة ، وروح النبوة وروح الولاية وروح المعرفة » .

ونفهم من ذلك أن الأولياء أعلى درجة من العارفين ، أو هم صفوتهم ، وإنهم - وهذا بدهى - أدنى درجةً من الأنبياء .

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن التوحيد هو أعلى درجات العرفان ، فمعنى هذا أن الولى مختص بأعظم ما فى التوحيد من أسرار ؛ وفى ذلك يقول القشيرى « للأولياء أسرار التوحيد بالتعريف من حيث الإلهام والخواطر ، ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا ، وانهم لا يحملون رسالة كالأنبياء إلى الخَلْق » .

وكما أن للنبى ﷺ معجزة فإن للولى كرامة ، وكلتاهما تتم بمشيئة الله وفضله . وقد تحدثنا عن نوع من الكرامة ، حدث بالنسبة للإمام القشيرى إبَّان محنته ، واستشرافه بالفِراسة - على مصرع الكندرى - فى خراسان .

ويرى ابن فورك أستاذ القشيرى « أن الأنبياء مأمورون بإظهار المعجزات ، بينما الأولياء مأمورون بستر الكرامات وإخفائها » ، الرسالة ص ١٧٤ .

ويرى القشيرى أن الكرامة فى الأصل دلالة على صدق النبى الذى يتبعه هذا الولىّ ، ولهذا نسمعه يقول فى لطائفه : « وكرامات الأولياء ملحقة بمعجزات الأنبياء » .

والملاحظ أن القشيرى فى هذا الموضوع لم يمنح نفسه حرية التحرك والخوض فى الدروب الوعرة أو المياه العميقة ، بمعنى أننا لا نسمع عنده ما نسمع عند غيره من تفضيل الولاية على النبوة لأن الولاية فى الأصل لله ﴿ الله ولى الذين آمنوا ... ﴾ .

ولا نسمع عن خاتم الولاية ، ولا نسمع عن معارج الأولياء ، كما هو الشأن عند الترمذى وابن عربى وغيرهما ممن خاضوا فى الموضوع إلى آماد بعيدة .

ويبقى القشيرى كالعهد به حريصاً على التصوف أشد الحرص ، فهو مكتف بأن يبتعد به عن كل مظنة حتى لا يعرضه للسهام التى قد لا تخلو من الغرض أو سوء الفهم أو الجهل .

* * *

حواشٍ هامة

نريد أن نختم هذا الكتاب ببعض ما رأيناه مفيداً للقارىء الذائق من توجيهات القشيرى ، وهى كلها فى إطار تجربته الصوفية الخاصةِ التى أمتعنا بها فى كتابه الذى حققناه وشرحناه ، وهو « ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى » .

نعم ، .... فالقشيرى فى معظم كتبه تغلب عليه صفة الصوفى الباحث ، أما فى « الترتيب » فإنه ذو طبيعة خاصة جداً ، إنه سجل تجربته صوفياً ذائقاً .

لهذه رأينا ألاّ نحرم القارىء من معايشة هذا السفر النفيس .

وبهذه المناسبة فهذه هى المرة الثانية التى يظهر فيها كتاب للقشيرى مذيلاً بالشرح ، فَشَرْحُنا على هذا الكتاب يتلو شرح الشيخ زكريا الأنصارى على « الرسالة » .

وهذا شرف لنا لا يعدله شرف .

* * *

يقول فى (الذكر وامتداده) : « ويستمر المريد فى الذكر

حتى يغيب به عن جميع الأشياء ، ويتوقف ذلك تماماً على توفيق الله إياه فى تقوية إرادته ، ثم يغيب بالذكر عن نفسه ، ثم يغيب بالذكر عن الذكر ، ويبقي مرة « طويلة » بين غيبة عن الذكر بالذكر وبين حضور للذكر بالذكر .. ولا يزال يرتقى فى كل غيبة وحضور إلى رتبة أخرى » .

ثم يرد ورود آخر عليه أعلى مما سبق ، وعندئذ يفنى العبد عن كل هذه الأحوال – وهذه هى حال البقاء ، وهى غيبة يسلب فيها عنه لسانه وسمعه وبصره .

وتبقى له شهادة القلب ، ويعجز فيها اللسان ، ويكون القول هنا بالقلب نطقاً ، لا علماً أو شاهدة ، بل كما كان ينطق بلسانه من قبل ، فإنه هنا يذكر بقلبه حتى يرد عليه ورود آخر أعلى من سابقه – وذلك بعد مدة حسبما يشاء الله له وعليه .

ويكون هذا الورود من حيث (الهيبة) ، وحين يبدو هذا الورود يظن العبد عنده أنه قريب من أنوار الحق ، ويفنى العبد فى هذا الورود .

وعند ذلك يُردد العبد بين حالَيْ البقاء والفناء .

وفى كل مرة يُرد إلى البقاء ، تزداد عبارات قلبه حتى تنتهى إلى أذكار يجدها فى قلبه مدةً بألسنة مختلفة ،

وبعبارات لم يسمعها من قبل ولا خطرت بباله ، إنها كلها ذكر لله ، يملأ قلبه حتى إنه ليتوهم أن جملة الكون تشترك بعبارات مختلفة فى هذا الذكر ، ويصير العبد بحيث لا يميز بين الذكر الذى يبدو من قلبه وبين ذكر الكون من حوله ، وذلك بسبب غلبات الأذكار عليه ، فهو يسمعها كلها فى وقت واحد .

وبعد ذلك .. يورد وروداً آخر ، وخير وصف له أن من ذاقه من سالكى هذه الطريقة على سبيل الوهلة ، فإنه يموت وذلك من (هيبة) الحق سبحانه . وعند هذا الورود يفنى العبد ، ولا يبقى منه شىء .

وبعده يرد إلى حال البقاء ، فتسلب عنه أحوال القلب من الشهادة وغيرها ، إذ يبدو له من الغيب سر ، وعلامته ألا يبقي للعبد لنفسه فى نفسه شىء ، فليس له إلا الله .

وهذه الحالة تشبه حالة البحر ، عندما تصير كل الأنهار إليه وبحكمه ، وليس لغير الله حكم . وعندها لا يكون من العبد حركة ، وكان قبلها يتحرك بالوارد الذى يرد عليه . أما الآن فإنه يتحرك بحركة البحر ، فإذا بدا تحرُّكُ البحر تحرك ، وإن سكن سكن .

فالسلطان هنا للبارى وحده - عز شأنه - والعبد فى هذا الموقف يشاهد الجمال فى جملة الكون ، يضىء بنور الله

تعالى . فكأنه يرى جميع الكون من السماء والأرض ، لا رؤية عيان بل رؤية قلب وبصيرة . وهى ليست رؤية علم ؛ لأنه لا يشعر بحركة فى الكون لذرة أو لنملة .

ثم ينتقل القشيرى موضحاً « ذكر الجوارح » فيقول : « عند ابتداء الذكر بالجوارح ، يجد العبد حركة فى كل جوارحه حتى لا يبقى جزء من لحمه وعظمه إلا وفيه حركة واختلاج » .

وتقوى الحركات والاختلاجات حتى تصير أصواتاً وكلمات تنبعث مسموعة من جميع الجوارح والأجزاء - ما عدا اللسان ، لأن اللسان لا ينطق فى مثل هذه الأحوال « فذكر اللسان كان فى البدايات ، أما هنا فقد حلّ محله أشياء أخرى أرقى وأعظم » .

ويلازم العبد التركيز فى هذه الهمة ، وهو يتيقن أنه لو لاحظ هذه الأذكار ، وطلب علمها فإنه ينفى عنها إلى غيرها ، ذلك لأن الذكر قد وقع على القلب .

صحيح إنه فى حال ذكر اللسان قد يكون للجوارح حركات واختلاجات ولكنها ليست على هذه الدرجة من القوة والشمولية .

ثم يوضّح القشيرى لفظةً لها من الإشكالات عند الناس الذين لا يفقهون أصداء غير مستحبة فى بعض الأحيان ، وهى

حالة « الشُّرب » فيقول بالنص : « يظهر على العبد شيء يجد له حلاوة فى فيه وفى حَلْقه حتى ليقوم له ذلك مقام طعامه وشرابه ، وهو يجد منبع ذلك الشراب - فى أصول أسنانه - أحلى من العسل ، فيُبقى أسنانه مطبقة بعضها على بعض ، ويشق عليه لو فتح فاه حينما يجد الشراب فى فيه على هذا الوصف .

وفى حال هذا الشرب يقرب العبد من الموت ، كأنه يذوب ويكاد يموت ، والواقع أنه لا يخاف إلا من الموت ؛ لأن الموت يحول بينه وبين هذا الشراب » .

هل سمعت يا أخى القارئ الكريم بشىء فى المذاقات أحلى من هذا ؟!

وتزداد حلاوته حينما أذكرك أنه صادر عن شيخ من أوساط أهل السُّنَّة يحظى بكل الاحترام والتوقير فى عصره وبعد عصره ، وهو متكلم عقلانى فى بدايته ، وليس أميا أو جاهلاً !!

أرجو أن تعيد قراءة الفقرة السابقة ، ثم تعاود الاستماع إلى الشيخ ، وهو يُعلّق عليها : « وهذه الرتبة التى يبلغها العبد يهرب عندها ألف رجل من هذه اللذة ، ولا يهرب منهم واحد من الألم ؛ لأن هذه اللذة أصعب وأقرب من الموت حيث يذوب العبد ويتلاشى وكأنه فى طريقه إلى الموت !

ولهذا فإن بعض المبتدئين يهرولون من الخلوة عندئذ ويؤثرون الخَلْق هروباً من هذه اللذة ، ويقول أحدهم : « أنا أهرب من الخلوة لهذا الشأن ! » .

ويستمر الأستاذ قائلاً : « وصاحب هذه الأحوال فى حال هذه اللذة تقوى معرفته ، ويحتد بصره وبصيرته حتى كأنه يسمع وقع أقدام النمل !

وهو فى البداية يتمنى ألا ينام ، ويبذل أكبر همته فى ألا يجد المنام أو يستريح من هذه المسألة ؛ ولهذا فإن علامة صحة هذه اللذة أن العبد لا يأخذه النوم طالما هو فى هذه المسألة حتى لو بقى سنين ، وعندما تضعف هذه المسألة يجد النوم » .

وينقلنا القشيرى إلى عهد ابتدائه فى الإرادة لينصح المبتدئين نصيحةً غالية وهى « السكون وإسقاط التدبير » فيقول : « مَثَلُ المبتدئين مع الأحوال كمَثَل الإنسان مع الطير الوحشى ، فإذا كان فى الإنسان حركة أو قوة أو أثر للحياة والحسّ فَرَّ منه الطير الوحشى واستوحش ، ولم يقع عليه ، أما إذا سَكَنَ الإنسانُ فإن الطير الوحشى يتوهَّم أنه ميت لا حراك فيه فيأنس به ، ويقع عليه ولا ينفر منه .

كذلك المبتدىء فى الأحوال يجب أن تسكن حواسه ، وألا تتحرك أنفاسه ، وألا يحرك يدنه أو جزءاً من بدنه ، وألا يمد

طَرْفَه للأشياء ، وأن يكون مراعياً لهمته بحيث لا يتحرك جزء من نفسه أو من بدنه أو من باطنه حتى تبدو له الأحوال بعد طول هذه المراعاة .

وحينما تَرِد هذه الأحوال ينبغى ألا ينظر إليها ، ولا إلى ما يبدو له منها ألبتة لئلا يحجب عنها ، وبهذا ينثال عليه المزيد منها - إن شاء الله تعالى » ويستمر قائلاً : « وتعود بى الذكرى إلى عهد ابتدائى فى الإرادة والمجاهدة وأحوال الذكر ، فإنه لو استتر عنى شىء من هذا السخاء لكان ذلك أهون علىَّ من أن أقوم للأكل أو أتحرك للوضوء وغير ذلك . ولكن جاء وقت بعد ذلك حينما كنت أغيب فى الذكر أو يغيب عنى فيه الذكر ، كان يشق علىّ التقصى عما أنا فيه حتى لا يفوت الذكر ، بل كانت تدخل علىَّ تلك المجاهدات - شئت أم أبيت - لئلا أُرَدَّ إلى ما عليه الناس من أحوالهم » ويستأنف القشيرى موضحاً كيف كان يلجأ إلى وسيلة عجيبة ، يطرد بها النوم والغفلة ، فيقول : « كنت أصعد لأقعد على حجر ناتيء فى جدار بيتنا ، وكان هذا الحجر من الصغر بمقدار ما أضع عليه قدمى ، وكان من تحتى وادٍ ، ومن فوقى شاهق .. وهكذا كنت أطرد النوم إذا توهمت نفسى مستلقياً على هذا الحجر الصغير المعلق فى الهواء دون أن يكون تحتى شىء » .

ونختم هذا الفصل بنهاية قصة له مع شيخه حينما كان يسيران في سياحة وخلوة .. « وإذا به يقول لي : « أقْعدْ على هذا الحجر وأطْبِقْ ما بين شفتيك وقل : يا أللهُ يا أللهُ يا أللهُ » .

ففعلتُ ، واجتهدتُ ألا أفتح الفم حتى امتلأ بالذكر ، وعاد الذكر إلى السر ، وبقيت في ذلك الوقت على هذا ، واجتهدتُ في سرى أن أداوم : يا أللهُ ياأللهُ يا أللهُ وأجرى في سرى ذلك ، وقد يجاوز الخلوة أو لا يجاوزها إلى أن صار ممتداً (راجع ما ذكرناه آنفا عن امتداد الذكر) ثم أُخِذْت عنى ففنيْتُ ، فلما أُعِدْتُ - وكان عند الصلاة - حملنى الشيخ في تلك الليلة إلى القَرية .. وأخذت في النحول .. » إلى آخر هذه القصة الممتعة من واقع تجربته الذاتية .

ولا بد لنا من أنِ ننبه إلى جملة هامة وردت في السياق السابق وهى - وكان ذلك عند الصلاة . وتلك هى حال (الفرق الثانى) التى درسناها من قبل ، إذ يحفظ الله عبده المخلص الصادق ، فيعيد إليه الوعى من حال الفناء كى يؤدى الصلاة في مواقيتها ، فما جاءت الحقيقة لتنقض الشريعة .

* * *

القشيرى والشعر الصوفى

هل لنا أن نختتم هذا الكتاب بفصل فيه من الإمتاع ما يذهب بما عانيناه من مشقة البحث طوال معركة المجاهدات والرياضات والمذاقات .. ؟

لم نجد أليق من بحث فى عناية هذا الشيخ الجليل بالشعر ، بل إننا سنُتحف القارىء بنماذج من شعره الخاص .

فليس من شك فى أن الرجل أديب له ذوق رفيع ، تمتلىء مصنفاته بأشعار الصوفية بل بأشعار مستجلبة من بيئة خارجة عن التصوف ، هى فى الأغلب الأعم بيئة المحبين العذريين الذين وقفوا أعمارهم على محبوبة واحدة ، أخلصوا لها الإخلاص كله .

وأصبح لقاء الشعر بالتصوف منذ عهد مبكر لقاء طبيعياً امتد عبر العصور ، ولا نغالى إذا قلنا إن التصوف فيه جانب من الفن رائع غاية الروعة .. ويكفى للدلالة على ذلك ما نجده عند ابن عربى وعند ابن الفارض ، وغيرهما ، وما نجده فى الشعر الصوفى الفارسى والتركى والأردى .. إنه تراث مرموق .. ومن أسفٍ أن بعض الجهات الأدبية التقليديه لا تحفل به كثيراً ..

وليس حديثاً عن النفس إذا قلنا بكل تواضع إننا نفرد له فى تدريسنا وتأليفنا جانباً من الاهتمام ينال تقدير المتصلين بهذه الدراسات سواء من أهل التصوف أو أهل اللغة والأدب .

إننا نؤمن إيمانا قوياً بعلاقة التصوف بالشعر ، والشعر بالتصوف .. والشاعر التقليدى إذا وصل إلى درجة الأصالة الحقيقية إنما تمر به لحظات إلهام وابتعاد عن الوعى أقرب ما تكون من لحظات الفناء عند الصوفى - كما رأينا ..

فالإلهام والفناء كلاهما غياب عن الوعى ، ومن هذه المناطق الرائعة تنطلق المعانى الجميلة البعيدة عن الحس والمحسوس .

ولهذا فإننا نستطيع أن نحكم بأن غزليات التصوف وخمرياته هى أنقى ألوان الأدب ، لأنها خالية من الصنعة والزيف والغش ، حافلة بالصدق والحرارة والدفء ، وهل هناك أروع من شعر يعبر عن أروع تجربة يخوضها الإنسان .. ونعنى بها محبة الله !؟

وهل ثمة فرصة لخداع الكلمة .. والكلمة هنا تصاغ فى كنف من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور - جَلّ شأنه .

وهل ثمة جمال وجلال أروع من الجمال الإلهى والجلال

الإلهى حتي يقبل العبد على مذاقات الأنوار ، وهى تنثال على ملكاته الوجدانية فتمنحه طاقة التعبير المثلى : الشعر الجارف .

على كل حال .. ما يهمنا هنا هو أن القشيرى قد أدخل هذه النقاط فى حسابه ، فأراد - وهو الباحث الذى يكتب النثر - أن يلوِّن أبحاثه بشعر جيد ، وهو بهذا يزيد المسائل توضيحاً من ناحية ، ويحبب الموضوع لكل الأذواق ، ويجذب المريدين نحو هيئة من التعبير تستهويهم فى كنف التصوف بدلاً من أن يلتمسوها فى بئية الأدب التقليدية ، فكأنه يريد أن يقول لهم : « عندنا ما عندهم .. إن باب « السماع » عندنا له قدره واحترامه ، ويمكن لو أردنا إطالة الدراسة أن نقسم الموضوع على النحو التالى :

١ - شعر خاص به .

٢ - شعر استجلبه من عند غيره .

ونسمح لأنفسنا أن نطلق على النمط الأول شعراً من (إنشائه) وعلى النمط الثانى شعراً من (إنشاده) .

وكلاهما موضح تمام التوضيح لتجربة التصوف .

وخلاصة هذه التجربة كما قلنا من قبل : « الحب » .

الحب بكل معانيه فهو هنا مصروف إلى اللقاء والهجر ،

والبعد والقرب ، والوداع ، والوصل والفصل ، مواعيد تُضرب وتُخْلف - شكوى وأنين من غيبة المحبوب ، بهجة وسعادة عند لقائه ... إلى آخر ما نعلم من تجربة الحب الإنسانى منقولةً إلى تجربة أسمى وأسنى .

ولنحاول أن نقطف من القشيرى قطفات مسرعة فى بعض هذه المجالات داعين القارىء إلى المطولات ، إن وجد فى الأمر شيئاً من متعة .

وهديتنا إلى القارىء فى البداية هى هذه الباقة الجميلة من أشعاره ، جمعناها من سائر مصنفاته طوال عشرتنا الطويلة معه .

ونستمع إليه دون أن نتدخل كثيراً ، يقول خلال تفسيره لسورة يونس (فى اللطائف) :

طلع الصباح فلات حين سراج ... وأتى اليقين فلات حين حجاج
وصل الذى كنا نؤمِّل نَيْلَــه ... من عقد ألويةٍ وحلٍّ رتاجِ
قد حان أيام السرور فحيهلا ... لهواجم الأحزان بالإزعاج

وله فى تقلب الأحوال :

فبتْنا بخيرٍ والدُّنَى مطمئنة ... فأصبحت يوماً والزمان تقلبا

ويطمئِن ذوى القلق من تغير « الوقت » فيقول :

إنْ نابكَ الدهرُ بمكروهه فقُلْ بتهوين تصانيفهْ

فعن قريبٍ ينجلى غَيْمُهُ وتنقضى كلُّ تصاريفهْ

وفى مقطعة طويلة نسبياً يصوِّر القشيرى حالة تائب تيقظت فيه مشاعر شتى : الإحساس بالذنب ، و الخوف من قرب الأجل، وفوات الأوان ، وعقد النية على (اللاعودة) وتأكيدها على مواصلة المسير فى طريق الحق ، وما عند الله من أعواض :

جنِّبانى المجون ياصـــاحبيا واتلوا سورة الصلاة عليّا

قد أجبنا لزاجر العقل طوعاً وتركنا حديث سلوى وميّا

وفتحنا لموجب الشرع نشراً وشرعنا لموجب اللهو طياً

ووجدنا إلــى القناعة باباً فوضعنا على المطالب كيًّا

كنت فى حر وحشتى لاختيارى فتعوضت بالرضا منه فيًّا

إنَّ من يهتدى لقطع هَواه هو فى العز حاز أوج الثـريًّا

والذين ارتووا بكأس مناهم فعلى الصدر سوف يلقون غيًّا

وله في التوكل :-

قبيحٌ - بىَ وربُّ العرش ربىَ - أخاف الفقرَ أو أخشى افتقارا

وكيف وأن أمد له يمينـــا لتدعَوه ويمنحهـا اليســـارا

وينسب السبكى له هذين البيتين :

لو كنتَ ساعة بَيْننا ما بَيْننا　　وشهدت حين نكرر التوديعا
أيقنتَ أن من الدموع محدثا　　وعلمت أن من الحديث دموعا

ونسب له صاحب (لغت نامه) بعد ترجمته هذين البيتين :

سقى الله وقتاً كنتُ أخلو بوجهكم
وثغر الهوى فى روضة الأنس ضاحكُ
أقمتُ زمانا والعيون قريرة
وأصبحتُ يوماً والجفون سوافكُ

أليست هذه أحوال القبض والبسط ؟

* * *

وننتقل الآن إلى جولة خاطفة بين مصنفاته ، لنورد بعض ما استجلبه من أشعار كشواهد على دراساته فى الموضوعات الصوفية المختلفة ، وليعذرنا القارىء إذا لم نحرص على تبويب الشعر بحسب موضوعاته لأن المقصود هنا هو إثبات عنايته بالشعر دون رصد لشيء غير ذلك .

من الخافرات البيض ودَّ جليسُها
إذا ما انقضي حديثها أَنْ تُعيدَه

● يقول سابق البربرى حين طلب إليه عمر بن عبد العزيز أن

ينشده شيئاً :

فكم من صحيح بات للموت آمناً
أتته المنايا بغتةً بعد ما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموتُ بغتةً
فراراً ولا منه بقوّته امتنع

وينقل عن مالك بن دينار أنه أنشد ذات يوم :

أَتَيْتُ القـــبورَ فناديْتُها أين المُعــظَّم والمُحْـــتقَر ؟
وأين المُدِلُّ بســـلطانه وأين العزيز إذا ما قــدر ؟
وأين المُلبِّى إذا ما دعا وأين المزكى إذا ما افتخر ؟

قال : فنوديتُ من بينها ولا أرى أحداً :

تفانواْ جميعاً فــما مُخْبِرٌ وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى وتمحى محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناسٍ مضوا أما لك فيما ترى معتبر ؟!

وينشد ليحيى بن معاذ الرازى نصاً له أهميته فى « السماع » :

دققنا الأرض بالرقص عـــلى غيب معانيكا
ولا عيبَ على رقصٍ لعبدٍ هـــائمٍ فـيكا
هـــذا دقـــنا لـلأر ضِ إذا طفنا بواديكا

ألا تلحظ فى هذا الشعر كيفية هيام الصوفية حينما يغمرهم الحب العالى فلا يملكون إلا التنفيس عن كوامنهم بالحركة ودق الأرض ، لعلّ ذلك يخفف عنهم ما يعانون من ضغوط !

هذه أشياء لا يسيغها الا الذائقون .

وأنشدوا :

ولوأننى أعطيت من دهرى المنى

وما كل ما يعطى المنى بمسدد

لقلت لأيام مَضَيْن ألا ارجعى

وقلت لأيام أتيْن ألا ابعدى

وعن جوهر المرء عند الابتلاء ينشد :

مَنْ تحلّى بغير ما هو فيه فَضَح الامتحانُ ما يَدّعيه

وينشد عن رحمة الله بعبده هذا الشعر الجميل :

حاسبونا فدقّقــــوا ثــم مَنّــوا فأعتقــوا

قوم إذا ظفــروا بنــا جـادوا بعـتق رقــابنــا

وعن الوجد والفقد ينشد :

أموت إذا فقدتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت

وعن أن الذل فى كنف الله هو منتهى العز عند هؤلاء القوم :

وإذا تذللت الرقاب تقرباً   منا إليك فعِزُّها فى ذُلّها

وينشد أيضا :

وكانت على الأيام نفسى عزيزة

فلما رَأَتْ صبرى على الذُّلِّ ذَلّتِ

وينشد فى الصحبة وعلاقات الخلان بعضهم بعضاً :

إن الكريم إذا حباك بوده   ستر القبيح وأظهر الإحسانا

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً   ملَّ الوصــال وقال كان وكانا

وفى نفس المعنى ينشد فى موضع آخر :

وتبصر فى العين منِّى القَذَى   وفى عينك الجذعُ لا تبصر

* * *

ونظن أنه يكفى من الشعر هذا القدر ، وإنما أردنا أن ننقل القارىء فى ختام الكتاب إلى روضة من رياض الصوفية ، فاح أريجها فى كل العصور ، ولفت أنظار العامة والخاصة إلى أناقتهم فى التفكير والتعبير على السواء .

* * *

بيان بمصنفات القشيرى

جميع كتب القشيرى مخطوطة ما عدا :

١ - الرسالة : طبعت عدة مرات

٢ - المعراج : طبعة دار الكتب الحديثة وأشرف على إخراجه الدكتور على عبد القادر .

٣ - التحبير فى التذكير : نشرها وحققها الدكتور إبراهيم بسيونى .

٤ - لطائف الإشارات : نشرها وحققها الدكتور إبراهيم بسيونى .

٥ - ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى :نشرها وحققها الدكتور إبراهيم بسيونى .

٦ - شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة : وتجدها ضمن أطروحة الدكتوراه للدكتور إبراهيم بسيونى .

٧ - فتوى : وتجدها ضمن أطروحة الدكتوراه لـ د. إبراهيم بسيونى .

٨ - شرح أسماء الله الحسنى : نشرها الحلواني .

أما كتبه الأخرى التى نعرفها من كتّاب التراجم فهى :

٩ - التيسير فى التفسير : عندنا منه نسخة مصورة للجزء الخامس فقط من مكتبة شرق شناسى بطشقند .

١٠ - الأربعون حديثاً

١١ - استفادات المرادات : استانبول

١٢ - حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح : اسكوريال .

١٣ - القصيدة الصوفية (الجزائر)

١٤ - التوحيد النبوى

١٥ - اللُّمع

١٦ - الفصول

١٧ - الفتوة

١٨ - نحو القلوب الصغير : نشره علم الدين الخيرى : (تونس) .

١٩ - نحو القلوب الكبير : هيّأه الدكتور بسيونى للطبع.

٢٠ - المقامات الثلاثة

٢١ - آداب الصوفية : مفقود

٢٢ - نكت أهل النُّهى

٢٣ - أحكام السماع : مفقود

٢٤ - عيون الأجوبة فى أصول الأسئلة .

٢٥ - الجواهر .

* * *

نموذج لتفسيره الإشارى
ننهى به هذا الكتاب

يقول عند : « بسم الله الرحمن الرحيم »

(..... ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الهداية : الإمالة .

والمعنى :« مِلْ بنا إليك ، وخُذْنا لك ، وكُنْ علينا دليلَنا ، ويَسِّرْ إليك سبيلَنا ، وأَقِمْ لنا هِمَمَنا . واجمعْ بك همومَنا ، واقْطَعْ أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوِّح فى قلوبنا طوالعَ الأنوار ، وأفْرِدْ تصورنا لك عن دَنَسِ الآثار .

رَقِّنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى ساحات القُرْبِ والوصال ، ومِلْ بنا عن مساكنة الأمثال والأشكال بما تلاطفنا به من وجود الوِصال ، وتكاشفنا به من شهود الجمال .

أرشدنا إلى الحقِّ لئلا نتكل على وسائط المعامَلات ، ويقع على وجه التوحيد غبارُ الظنون وحِسبان الأعلال » القشيرى فى لطائف الإشارات .

* * *

خاتمة

والحمد لله أولاً وآخراً ..

ونبتهل إلى العلىّ القدير أن ينتفع بهذا الكتاب كلُّ مقتربٍ من هذه الروضة المباركة ..

وأن يتقبله فى أعمالنا ..

إنه نعم المجيب .

إبراهيم بسيونى
خادم الإمام القشيرى ومحققه
وشارحه

فهرست الكتاب

* * *

رقم الإيداع : ٧٣٩٢ / ١٩٩٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 971 - 241 - 068 - 0